محمد صلى الله عليه وسلم

أعظم عظماء العالم

تأليف

أحمد ديدات – مايكل هارت

ترجمة

على الجوهرى

مكتبة القرآن

مقدمة المترجم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد:

يضم هذا الكتاب بين دفتيه ترجمة الفصل الأول من كتاب مايكل هـ. هارت المعنون بعنوان: "العظماء مائة أولهم محمد صلى الله عليه وسلم" ، وكذلك ترجمة كتاب العلامة الشيخ أحمد ديدات المعنون بعنوان: "محمد صلى الله عليه وسلم أعظم العظماء في العالم".

وإذا كان خصوم الإسلام قد كالوا الاتهامات الزائفة الكاذبة إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام -عليه السلام- إلى حد أن كتب محررو دائرة المعارف لاروس الفرنسية عن محمد- صلى الله عليه وسلم- قولهم: "بقي محمد مع ذلك ساحرًا ممعنا في فساد الخلق ، لصٌّ نياق ، "كردينالا" لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية فاخترع دينا جديدًا لينتقم من زملائه". إذا كان خصوم الإسلام قد حاولوا صَدَّ أتباعهم عن التحوُّل إلى اعتناق دين الإسلام لأنه دين الحق بكل بساطة وكل وضوح ، بمثل هذه الأكاذيب والأباطيل ، فلقد قيَّض الله للإسلام ولنبي الإسلام عليه السلام من الكُتَّاب وقادة الفكر شرقًا وغربًا مَنْ يدافع عن الإسلام وعن نبي الإسلام - عليه السلام- ويدفع عنه هذه التهم الزائفة والأباطيل الكاذبة.

والفصل الأول من كتاب مايكل هـ.هارت يجعل نبىّ الإسلام - عليه السلام- أعظم العظماء دون منازع . ولا يقف الشيخ أحمد ديدات عند وقائع السيرة النبوية الشريفة لكي يسردها مجرد سرد ، بل إنه يتأمل بعض الوقائع المعينة ليستخلص منها مجالي عظمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأسلوبه السلس البليغ باللغة الإنجليزية التي يتكلمها ثلثا سكان العالم ، مع المقارنة بين عظمة نبي الإسلام ﷺ والأنبياء الآخرين عليهم السلام.

والله وليُّ التوفيق ، وهو سبحانه نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير،

المترجم

على الجوهري

١- محمد[1] ﷺ (٥٧٠-٦٣٢)

يجوز أن يُدْهِشَ اختياري محمدًا ﷺ ليكون على رأس قائمة أكثر الأشخاص تأثيرا في العالم بَعْضَ القراء، وربما كان ذلك عُرْضَةً للاستفسار من آخرين، ولكنه ﷺ كان هو الرجل الوحيد في التاريخ الذي تحقق له النجاح الكامل - كل الكمال- على المستوى الديني وعلى المستوى الدنيوي.

لقد وضع محمد ﷺ أسس واحد من أعظم الأديان في العالم، وقام بنشرها استنادًا إلى مصادر جد ضئيلة، وأصبح أيضا قائدًا سياسيا عظيم التأثير. واليوم، بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا بعد وفاته لا يزال تأثيره قويًا واسع الانتشار.

ومعظم الأشخاص الذين يضم هذا الكتاب لمحات من تاريخ حياتهم توافرت لدى كل منهم ميزة أنه قد وُلِدَ ونشأ وترعرع وتكاملت معالم شخصيته في أوساط ذات صبغة حضارية، وأتيحت له فرصة أن يتثقف ثقافة رفيعة المستوى في العصر الذي بزغ فيه نجمه في ربوع أمة ذات وزن سياسي كبير.

(١) التزمنا في هذا الكتاب بالترجمة الحرفية بوجه عام إلى أكبر حد ممكن، ولم نضف أي شيء ما لم يكن له لزوم. وعلى سبيل المثال لا الحصر إذا كان الكتاب والمؤلفون الغربيون لا يصلون ولا يُسَلِّمُونَ على النبي ﷺ كلما ذكروا اسمه، فلا عُذْرَ لرجل مسلم مثلي في أن يجاريهم في ذلك، بل إنني لا أجيز لنفسي أن أذكر المسيح أو أي نبي من الأنبياء - عليهم السلام- دون تسليم عليهم. ولم نضف أي كلام إلا نزولا على مقتضيات اللغة أو لإزالة اللبس في المعنى في بعض الأحيان (المترجم).

ولقد كان ميلاد محمد ﷺ على كل حال، في سنة ٥٧٠ ميلادية، في مدينة مكّة، في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية التي كانت آنذاك منطقة بالغة التخلف الحضاري بالنسبة إلى بقية أرجاء العالم المعمور في ذلك الوقت؛ إذ كانت بعيدة كل البعد عن مراكز التجارة والفن والعلم. وإذا كان ﷺ قد أصبح يتيم الأبوين في سِنّ السادسة، فلقد كان قد نشأ في ظروف بالغة التواضع ...... وتؤكد لنا المصادر الإسلامية كافة أنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب. ولقد تحسنت ظروفه المالية [٢] عندما تزوج في سِنّ الخامسة والعشرين من أرملة غنية. وبالرغم من ذلك، وحتى شارف بلوغ الأربعين من العمر، كان هنالك القليل الذي ينم عن أنه كان شخصا مرموقا متميز المكانة بين الناس.

وكان معظم العرب آنذاك يعبدون الأوثان، ويؤمنون بآلهة متعددة. وكان هنالك في مكة على كل حال عدد قليل من اليهود والمسيحيين، ولا ريب في أن محمدًا ﷺ قد عرف منهم بوجود [٣] إله واحد قادر يحكم العالم كله. وعندما بلغ ﷺ الأربعين من العمر أصبح مقتنعا أن هذا الإله الواحد القادر (الله) كان يوحى كلامه إليه وكان الله قد اختاره لكي ينشر الدين الصحيح.

ولمدة ثلاث سنوات أخذ محمد ﷺ يدعو أصحابه وذوي قرابته إلى الإيمان بالدين الصحيح. وبعدئذ، في حوالي سنة (٦١٣م) بدأ يدعو علنًا إلى الدين الصحيح. وعندما بدأ يكسب أتباعًا لدينه الصحيح

---

(٢) كانت السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها هى التى سعت من جانبها للزواج من سيدنا محمد ﷺ لأمانته وجميل سجاياه، ونجحت في مسعاها ذلك، ولم يكن سيدنا محمد ﷺ هو الذي سعى للزواج منها لتحسين ظروفه المالية وقد كان طوال حياته عزوفا عن الحصول على الأموال واكتنازها (المترجم).

(٣) كان النصارى بنجران، وكان اليهود بيثرب، أما مكة فكان فيها الحنفاء وكان فيهم بقية من ميراث دين إبراهيم الحنيف عليه السلام، وكان ﷺ يتعبد على دين جده إبراهيم.

ببطء أصبحت السلطات في مكة تعتبره إزعاجًا خطيرا. وفي عام(٦٢٢م) خوفا على سلامته، هرب [٤] إلى المدينة، وهي مدينة تبعد شمالا عن مكة بمسافة ٢٠٠ ميل حيث أتيح له وَضْعٌ ذو قوة سياسية عظيمة.

وجرت تسمية هذا الهروب باعتبار أنه "الهجرة" وكان نقطة تَحَوُّل في حياة النبي ﷺ. لقد كان له في مكة أتباع عددهم قليل. وفي المدينة كان له أتباع أكثر وسرعان ما اكتسب نفوذًا وسيطرة، وجعل منه ذلك النفوذ، وجعلت منه هذه السيطرة حاكما يفرض أحكام الحياة الفاضلة. وخلال السنوات القليلة التالية، وبينما كان أتباع محمد ﷺ يزداد عددهم بسرعة، جرت معارك متتالية بين المدينة ومكة. وانتهت هذه الحروب المتتالية بين المدينة ومكة في سنة (٦٣٠م) بعودة محمد ﷺ إلى مكة منتصرًا وتحقق له فَتْحُ مكة. وشهدت السنتان ونصف السنة التاليتان لفتح مكة تَحوُّلاً سريعا من القبائل العربية نحو الدين الجديد. وعندما انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى في سنة (٦٣٢م) كان هو الحاكم الفعلي لكل جنوب شبه الجزيرة العربية.

وكان للقبائل البدوية في شبة الجزيرة العربية سمعة ذائعة، باعتبار أنهم مقاتلون في غاية الشراسة. ولكن عدد أفراد القبيلة كان صغيرا، وكان يفتُّ من عضدهم الفرقة والتشرذم والتطاحن فيما بينهم، وكان بأسُهُمْ لا يُضَارِعُ بأيِّ حال بأس وقوة الجيوش الأكبر حجما في الممالك ذات الأراضي الزراعية التي يسود في ربوعها الاستقرار الموجودة في شمال شبه الجزيرة العربية. وعلى كل حال، وبعد أن توحدت القبائل العربية لأول مرة في التاريخ على يد محمد ﷺ، وبفضل استلهام عقيدتهم

---

(٤) لم تكن هجرة النبي ﷺ لمجرد الخوف على سلامته، ولم تكن هجرته مجرد هروب بسبب ذلك الخوف على سلامته، ولكن هجرته كان قدرًا مقدورا من الله سبحانه وتعالى وبأمر صريح من الله سبحانه وتعالى ولقد أخبر النبي ﷺ سيدنا أبا بكر الصديق أن الله "قد أذِنَ" له بالهجرة.

القوية ، وإيمانهم بوجود إلـه واحـد حقيقي ، فلقد قامت هذه الجيوش العربية الصغيرة الحجم بسلسلة مدهشة من الفتوحات الكبرى في التاريخ البشري. في شمال شرقي شبه الجزيرة العربية كانت تقع الإمبراطورية الفارسية الساسانية الضخمة ، وفي شمال غربي شبه الجزيرة العربية كانت تقع الإمبراطورية البيزنطية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية حول عاصمتها القسطنطينية الشهيرة. ومن ناحية العدد ، عدد الأفراد في الجيوش المتحاربة ، كان عدد الأفراد في الجيوش العربية قليلاً ، ولا يقارن بعدد الأفراد في جيوش أعدائهم. وبالرغم من ذلك ، وفي ميادين المعارك ، فلقد هزم العرب بسرعة كل جيوش أعدائهم في ميزوبوتاميا (العراق) وسوريا وفلسطين. وبحلول عام (٦٤٢م) تم للعرب انتزاع مصر من براثن الإمبراطورية الرومانية ، بينما تمكن العرب من سَحْق الجيوش الفارسية في معارك بالقرب من القادسية في عام (٦٣٧م) وحول نهاوند في عام (٦٤٢م) .

ولم يكتف العرب بهذه الانتصارات الباهرة التي تحققت لهم تحت قيادة الجيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ مثل أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب . وبحلول عام (٧١١م) اجتاحت الجيوش العربية كل الاجتياح كل الأراضي في شمال إفريقيا ، حتى وصلت إلى المحيط الأطلسي. وهنالك اتجه العرب شمالا ، وعبروا مضيق جبل طارق ، واستولوا على أراضي المملكة القشتالية في إسبانيا .

وخلال تلك الحقب من ذلك الزمان ، كان يبدو أنه من اللازم أن يتم للعرب الاستيلاء على كل أوروبا المسيحية ؛ وعلى كل حال ، تمخضت الأحداث التاريخية في عام (٧٣٢م) خلال وقائع معركة "تور" عن هزيمة جيش المسلمين الذي كان قد توغل إلى وسط الأراضي الفرنسية على يد

الفرنك تحت قيادة شارك مارتل . وعلى كل حال ، وفي غضون أقل من قرن من الزمان ، استطاع البدو أبناء تلك القبائل العربية المسترشدين بتعاليم نبيّهم ﷺ أن يستخلصوا لأنفسهم إمبراطورية تمتد من حدود الهند ، إلى المحيط الأطلسي . وهي أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ حتى الآن. وفي كل مكان انتصرت فيه جيوش المسلمين حدث تحول ضخم بالتالي نحو اعتناق الدين الجديد .

والآن ، يبدو أنه لم تدم السيطرة على كل تلك الفتوحات ، ورغم أن الفُرْسَ (الإيرانيين في الوقت الحالي) قد ظلوا متمَسّكين بدين نبي الإسلام ﷺ نجد أنهم حققوا استقلالهم عن سيطرة العرب عليهم. وفي أسبانيا ، طوال سبعة قرون من الحروب تمكن المسيحيون من استعادة سيطرتهم على كل شبه الجزيرة الأيبيرية في البرتغال وإسبانيا. وعلى كل حال ظلت ميزوبوتاميا (العراق) ومصر ، وكانت كل منهما مَهْدًا لحضارة عريقة ، تحت مظلة الانتماء للعرب كما هو الشأن بالنسبة إلى كل البلاد الواقعة على السواحل [٥] الشمالية لقارة إفريقيا .

واستمر الدين الجديد بطبيعة الحال في الانتشار في الأقطار المجاورة لأرض العالم الإسلامي حتى وصل إلى أماكن بعيدة عن أراضي الفتوحات الإسلامية. وللإسلام بكل تأكيد عشرات الملايين من الأتباع المسلمين في إفريقيا وفي وسط آسيا ، ويوجد ملايين المسلمين في باكستان ، وشمال الهند

(٥) كان لدى المسلمين ما يقدمونه للناس في الأقطار التي فتحوها زادًا للروح ، وغذاءً للفكر ، وترسيخًا للعقيدة الدينية الصحيحة ، مما جعل الدين الإسلامي ، واللغة العربية ، والقيم الروحية السليمة المستمدة من الإسلام ترسخ بين الناس في هذه الأقطار ، وتستقر ، إذ دخلوا طواعية واختيارا في دين الإسلام ، دين الله ، أفواجًا. ولقد احتل الرومان مصر قبل الإسلام ، واحتل الإنجليز مصر ، وزال الاحتلال الروماني عن مصر دون أن يخلف شيئا ، وزال الاحتلال الإنجليزي عن مصر دون أن تبقى له أية آثار. وكان الفيلد مارشال روميل يملك دبابات قوية ومدافع من عيار ٨٥ مم قوية ، ولكن روميل لم يكن يملك أي قيم روحية فاضطر إلى الانسحاب من صحراء مصر الغربية ومن كل شمال إفريقيا. وهذا هو مصير الاحتلال الصهيوني في فلسطين ، لأنه ليس لدى الصهاينة ما يقدمونه للناس في هذه المنطقة فيقبله الناس منهم (المترجم) .

ولقد كان محمد ﷺ في كل الأحوال وبكل المقاييس هو المسئول الوحيد عن معتقدات الإسلام، وعن كل جوانبه ومبادئه الأخلاقية. وبالإضافة إلى ذلك، كان محمد ﷺ هو المؤسس الحقيقي الوحيد لكل أسس وقواعد وأصول الدعوة إلى الإسلام، باعتبار أن الإسلام كان في حياة النبي ﷺ بمثابة دين جديد يظهر بين الناس لأول مرة، وكان محمد ﷺ هو الإنسان الوحيد الذي حدد لأول مرة طرق وأساليب عبادة الله، وكافة ممارسات شئون العبادات في الإسلام. وبالإضافة إلى ذلك، لا جدال في أن محمدًا ﷺ هو "صاحب" الكتاب السماوي أو القرآن الكريم، وهو مجموعة من التأملات الذاتية [٧] التي كان محمد ﷺ يعتقد أنها قد أوحيت إليه مباشرة من الله سبحانه وتعالى. ومعظم ما أوحى إليه من الله قد تم تدوينه كتابة في حياة محمد ﷺ وتم تجميعه في نسخة معتمدة من المصحف الشريف في وقت لم يتأخر كثيرًا عن انتقاله إلى الرفيق الأعلى. والقرآن الكريم، بناء على ذلك، يمثل إلى أكبر حد يمكن تصوُّرُه أفكار محمد ﷺ وتعاليمه وتتمثل فيه إلى حد كبير وبكل دقة كلماته. ولم تظهر في عالم البشرية مثل هذه الآثار المكتوبة منسوبة إلى المسيح باعتبار أنها تعاليم المسيح عليه السلام. وحيث أن القرآن الكريم يُمَثِّلُ بالنسبة للمسلمين ما يمثله الإنجيل بالنسبة للمسيحيين من حيث الأهمية، فلقد كان تأثير محمد ﷺ على المسلمين من خلال معطيات القرآن الكريم تأثيرًا عظيمًا. ومن المحتمل أن التأثير النسبيّ لمحمد ﷺ في الدين الإسلامي يفوق بكثير التأثير النسبي لكل من المسيح -عليه السلام- ، والتأثير النسبي للقديس بولس مجتمعين بالنسبة إلى تأثير كليهما في الديانة المسيحية. ولو أننا وضعنا في اعتبارنا المستوى الديني الخالص يبدو لنا أنه من الممكن أن يكون لنبي

---

(٧) كان ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض، حيث كان نموذجًا يحتذى، والقرآن هو كتاب الله الكريم، وليس تأملات ذاتية وإنما هو تنزيل من حكيم حميد.

الإسلام محمد ﷺ من التأثير في التاريخ البشري نفس تأثير المسيح عليه السلام في التاريخ البشري .

ويضاف إلى ذلك أن محمدًا ﷺ كان قائدا دنيويا كما كان مؤسسا لدين جديد ، ولم يكن ذلك هو شأن المسيح عليه السلام ! وفي حقيقة الأمر ، وباعتبار أن محمدًا ﷺ كان يعتبر بحق القوة الدافعة وراء الفتوحات العربية ، فمن الجائز لنا أن نعتبره بحق جديرا بأن يكون هو أعظم القادة السياسيين تأثيرا في كل عصور التاريخ البشري .

ويستطيع الإنسان أن يقول بالنسبة إلى كثير من الأحداث التاريخية الهامة أن هذه الأحداث كانت محتمة الحدوث بدون القائد التاريخي الذي قادها . وعلى سبيل المثال ، نجد أن المستعمرات في أمريكا الجنوبية كان من المحتمل أن تحصل على استقلالها عن سيطرة دولة (إسبانيا) حتى لو لم يكن سيمون بوليفار قد عاش فوق أرض أمريكا الجنوبية على وجه الإطلاق . ولكن مثل هذا القول لا ينطبق بأي حال بالنسبة إلى الفتوحات العربية . لم يحدث شيء من هذا القبيل إطلاقا قبل محمد ﷺ ولا يوجد أي سبب يبرر القول بأن هذه الفتوحات العربية كان من الممكن أن تحدث دون وجوده . والفتوحات الوحيدة التي يمكن مقارنتها بالفتوحات الإسلامية[8] هى الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر التي تُعْزَى أساساً إلى تأثير جنكيز خان .

والفتح المغولي يختلف كل الاختلاف عن الفتوحات العربية: فمن العراق إلى المملكة المغربية عند المحيط الأطلسي تمتد سلسلة متصلة الحلقات من الدول العربية المتحدة لا بسبب انتسابها إلى الدين

(٨) لا وجه للمقارنة بين من كانوا يحملون رسالة ربهم ليبلغوها للناس جميعًا ، كما أمرهم نبيهم ﷺ وبين تلك الهمجية الشرسة للمغول أعداء الدين والثقافة ، وأين هؤلاء من أولئك ؟!.

الإسلامي وحده ، ولكنها أيضا متحدة بسبب اللغة العربية ، والتاريخ المشترك ، والثقافة الواحدة. وتمركز القرآن الكريم في صميم الدين الإسلامي ، وحقيقة أنه مكتوب باللغة العربية هما الاعتباران اللذان يحتمل أن يكونا قد منعا معًا تحطمَ اللغة العربية إلى نثار من اللهجات غير المتجانسة ، وهو الاحتمال الذي كان ممكن الحدوث في ربوع ثلاثة عشر قطرا من الأقطار العربية . إن الفروق وأوجه الاختلاف والتمايز بين هذه الدول العربية موجودة بطبيعة الحال . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لم تشارك كل من إيران ولا إندونيسيا في الحظر البترولي الذي أعلنه العرب على دول الغرب في شتاء سنة ٧٣-١٩٧٤ . ولم تكن مجرد مصادفة أن كل الدول العربية ، والدول العربية وحدها ، قد شاركت في هذا الحظر البترولي .

ونحن ندرك إذَنْ أن الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي قد لعبت دَوْرًا مهما في التاريخ البشري حتى يومنا الحاضر. إنه هو إذن ذلك التآلف المنقطع النظير بين ما هو دُنْيويٌّ وما هو دينيٌّ ، وهو الذي يجعلني أرشح محمدًا ﷺ ليكون الشخص الأوحد الأكثر تأثيراً في التاريخ الإنساني .

❀❀❀❀

محمد صلى الله عليه وسلم

أعظم عظماء العالم

تأليف

أحمد ديدات

ترجمة

على الجوهرى

{ الفصل الأول }

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(قرآن كريم – سورة القلم : الآية ٤)

✍ كيف بدأ موضوع هذه الدراسة؟

منذ عشر سنوات أعطاني أحد أبناء عمومتي ، وهو السيد/ محمد مهتار الفاروقى نصًا مكتوبًا بالآلة الكاتبة للمؤرخ الفرنسي لامارتين . وكان هذا النص يهدف إلى أن محمدًا ﷺ وهو نبي الإسلام عليه السلام كان أعظم رجل عاش على وجه الأرض . وكان السيد مهتار قد اعتاد أن يمرر المعلومات إلىَّ معتقدا أنني يجوز لي أن أحْسِنَ استخدامها في الوقت المناسب والمكان المناسب . وقبل أن يعطيني ذلك النص المنسوب إلى لامارتين كان قد أهدى إلىَّ كتابا بعنوان: "نداء المئذنة" وهو كتاب غالى الثمن من تأليف البيشوب كنيث كراج . وبتحليل ذلك الكتاب اكتشفت غِشَّ وخداع المستشرقين المسيحيين ! .

وألهمني إعجاب ومديح لامارتين لنَبِيِّنا ﷺ ووجدت في نفسي رغبة قوية في مشاركة أفكاره عن نَبِيِّنا ﷺ مع إخوتى المسلمين . ولم تلبث الفرصة زمنا طويلا حتى سنحت لي .

ولقد تلقيت مكالمة هاتفية من إحدى الجمعيات الإسلامية في بلدة "دانهوسر" وهى مدينة صغيرة في شمالي "ناتال" ، وكان أعضاء هذه الجمعية قد نظموا احتفالا بمناسبة المولد النبوي الشريف . ووجهوا إلىَّ

الدعـوة لكـي ألقـي محاضـرة بهذه المناسبة الكريمة . ولذلك اعتبرت ذلك تشريفا لي ، وفرصة متاحة ، وميزة كبيرة ، ووافقت على ذلك فورًا. وعندما استفسـروا عـن موضـوع المحاضرة لإعداد الدعاية عنها اقترحت أن يكون موضوعها استلهاما لما كتبه لامارتين هو:"محمـد ﷺ أعظم العظمـاء".

❀ أخطاء متكـررة :

عـندما وصـلت إلى "دانهوسـر" لاحظـت وجـود كميـة كـبيرة مـن الإعلانـات الملصقة عن اللقاء الذي كنت دعيت لحضوره ، وكان مضمون تـلك الإعلانات يقول: إن ديـدات سيلقي محاضرة عن " محمـد العظيم " ﷺ ودَبَّ اليـأس في قلبي إلى حَـدٍّ ما ، وعندما حاولت الاستفسار عن ذلك أخبروني أن التغيير في عنوان المحاضرة يرجع إلى خطأ عامل الطباعة .

وبعـد حوالـي شـهرين مـن ذلـك ، تلقيت دعوة مماثلة . وكانت الدعـوة هـذه المرة من إحدى الجمعيات الإسلامية في "بريتوريا" العاصمة الإداريـة لجمهورية "جنوب إفريقيا" وكان الموضوع الذي اقترحته كان هو نفـس الموضـوع: " محمـد ﷺ أعظـم العظماء في العالم" . ولخيبة أملي تمَّ تغيـير العـنوان مـرة أخرى إلى : "محمـد العظيم ﷺ ". وقدمت إليَّ نفس الأسباب والمعاذير . ووقعـت هاتان المصادفتان في موطني جنوب إفريقيا . ولكـن دعونـي أقـدم إليكـم مـثالا آخـر لمـا نعـاني مـن مركب النقص والشعور بالدونية– وهو جزء من أمراض الأمـة .

❁ ولـم يختلف الشأن نفسه في أمريكـا :

وفي أثـناء رحـلتي لإلقـاء محاضـرات في الولايات المتحدة الأمريكية العظمـى في عـام ١٩٧٧ ، اكتشـفت أن رجالـنا في الدنيـا الجديدة أقدامهم أيضـا مصـنوعة مـن الصلصال . ومن بين الخبرات والتجارب المخزنة التي صـادفتني أعـتقـد أن هــذه الـتجربة تكفي وحدها للبرهنة على صحة ما أشرت إليه .

قـرر المسـلمون في "إنديانـا بوليـس" أن يـنظموا مـا يلزم لكي أقوم بإلقـاء محاضرة لي بعنوان "ما يقوله الإنجيل عن محمـد ﷺ " واتفقوا على أن يعلنوا ذلك بالضبط، ولكن خنوعهم لم يمكنهم من ذلك . لقد ظنوا أن عنوان محاضرتي كان عنوانًا فضفاضًا حافلا بالمبالغة ، ولذلك أملت عليهم حكمـتهم (هـل هـى حكمـة؟) أن يخففـوا مـن الغـلواء وجعـلوا عنوان محاضـرتي هـو: "نـبي في الإنجيـل" ولا شك في أنك ستجد العنوان الذي اقترحـوه للمحاضـرة عـنوانًا ميتًا تافــه الدلالة . أي عنوان من العنواين يمكـن أن يجـذب المسـلم والمسـيحي واليهـودي والهندوسـي إلى حضـور المحاضــرة ؟ مـاذا تعـني كلمة "نبي" ؟ بالنسبة إلى أغلب الناس فهى تعني "أي نـبي" مـن الأنـبياء الكـثيرين الذين ورد ذكرهـم في الإنجيل؟ أيوب ، يوئيـل ، يونـان ، عـزرا ، اليسـع ، حـزقيال هـم عــدد قـليل مـن الأنبياء الكـثيرين الذيـن ورد ذكرهـم في الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى . وكما هو متوقع كان عدد الحضور أقل مما كان منتظرًا.

❁ عقدة النقص:

ما هو السبب في هذا المرض ؟ ما هو السبب في عقدة الشعور بالدونية والانحطاط عن الآخرين ؟ نعم ! نحن أمة مستضعفة . إن القدرة على الحركة الذاتية مسلوبة منا ، وليس ذلك بسبب أعدائنا فقط ولكن بسبب أصدقائنا وأتباع ديننا ذوي الأرواح الميتة . إننا لا نجرؤ حتى على مجرد ترديد ما يشهد به الله سبحانه وتعالى لنبينا ﷺ إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم :٤) .

❁ الأعظم تأثيرًا:

لا غضاضة بالنسبة لأي شخص ، ومن الطبيعي جدا بالنسبة لأي شخص أن يحب وأن يمدح وأن يرفع إلى الدرجات العلى وأن يمجد بطولة القائد الذي يتولى قيادته سواء كان ذلك القائد رجل دين هندي أو قديسًا أو نبيًا ، ونحن نفعل ذلك في كثير من الأحيان .

وعلى كل حال ، لو أنني كنت سأقدم هاهنا ما قد قاله أو كَتَبَهُ علماء المسلمين عن نبي الإسلام ﷺ لكان من الممكن أن يعتبر ذلك كمجرد مبالغة أو خيال جامح أو محاولة من محاولات عبادة شخص من الأشخاص من وجهة نظر المتشككين من خصوم الإسلام . وبناء على ذلك أرجو أن يُسْمَحَ لي أن أقتبس بعض أقوال المؤرخين المحايدين ، والنقاد المنصفين ، أو أن أقتبس حتى أقوال بعض الأعداء المعروف عنهم العداء الصريح لرسول الله العظيم محمد ﷺ ، ولو كانت شهادة الإنصاف والاعتراف

بصـدق النبوة ، وعظيم المكانة التي يدلي بها غير المسلمين لنبي الإسلام ، لا تصـل إلى قـلوب المـنكرين ، فمـن الممكـن أن نقطـع ، ونـتأكد أنهـم مكابرون معاندون رافضون للحق مهما شهد به شهود الحق ، ودلت عليه أدلة الصدق . إنهم يرفضون نعمة الإيمان بحقائق الإسلام .

في الأيـام الراهـنة ، تم طـبع كـتاب بعنوان الـ ١٠٠ أو أعظم مائة ، أو أعظـم مائـة شـخص تأثيرًا في التاريخ البشري . ولقد كتب هذا الكتاب شـخص يدعـى : "مايكل هـ . هارت" وهو يوصف بأنه مؤرخ ، وعالم في الرياضيات ، وفي عـلوم الفـلك . ولقـد بحث في جنبات التاريخ البشري للعـثور عـلى الرجال الذين كان لكل منهم أعظم تأثير في تاريخ البشر . وهـو يحـدد لـنا في كـتابه ذاك مائـة شـخص هم الأعظم تأثيرًا في التاريخ البشـري ، ومـن بيـنهم أسـوكا (مؤسس أكبر إمبراطورية هندية في القرن الـثالث قـبل الميـلاد) وأرسـطو (أشـهر فلاسـفة اليونان) وبوذا (مؤسس الديانـة الـبوذية) وكونفوشـيوس (مؤسـس الديانـة الكونفوشية) وهتلر (مؤسـس الـنازية الألمانيـة) ، وأفلاطـون (مـن أشـهر فلاسـفة اليونـان) وزرادشـت (مؤسـس الديانـة الزرادشتية) . ومؤلف الكتاب لم يعطنا مجرد إحصـاء بيـاني لأشهر مائة شخص في العالم من حيث تأثيرهم في الناس ، ولكـنه أيضـا يضـع تقويمًا لدرجة تأثيرهم ، وهو يرتبهم حسب درجة تميز كـل مـنهم مـن رقـم واحـد حتى رقم مائة . وهو يوضح لنا الأسباب التي حـدت بـه إلى هـذا الترتيـب . وليـس مطلوبا منا أن نتفق معه في كل ما ذهب إليه ، ولكننا لا نستطيع أن نمتنع عن الإعجاب بالبحث الذي قام به ذلك الرجل أو نمتنع عن الاعتراف بأمانته .

والاعتبار المثير للدهشة في اختياره للشخصيات الأكثر تأثيرًا في العالم هـو أنـه يضـع نبيـنا الكريم ، النبيَّ محمـدًا ﷺ باعتبار أنه "الأول" ، أول "العظماء المائة الأكثر تأثيرا في العالم" مؤكدًا بهذا دون أن يدري الشهادة الـتي شـهد بهـا الله لصـاحب الوحـيِ الإلهي الأخير إلى العالم إذ يقول الله سبحانه وتعالى عن رسول الله ﷺ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سـورة الأحـزاب : من الآية٢١) .

❁ عيسى عليه السلام هو رقم (٣):

وإذ جعل "هارت" نبي الإسلام ﷺ رقم (١) ، فهو بطبيعة الحال قد أرضـى المسـلمين . ولكـن اخـتياره ذاك قـد سَبَّبَ صـدمة لغير المسلمين وخصوصـا اليهـود والمسـيحيين الذين اعتبروا ذلك خلَلاً جسيمًا ، وخطأ عظـيمًا . مـا هذا ؟ هل يكون عيسى عليه السلام هو رقم (٣) ويكون موسى عليه السلام هـو رقـم (٤٠) ؟! هـذا شأن يصعب عليهم كثيرًا أن يتقبلوه . ولكن ماذا يقـول هـارت في هذا الصدد تبريرًا لوجهة نظره ؟ إنه يقدم أسباب وجهة نظـره كمـا يـلي إذ يقـول: "حيـث إنـه يوجـد عـلى وجـه الـتقريب من المسـيحيين ضـعف عـدد المسـلمين في العـالم ، يجوز بطبيعة الحال أن يبدو غريـبا أن أعتـبر أن محمـدًا ﷺ أعلى في الدرجة ، وأولى بالتقديم من حيث التأثير في تاريخ العالم عن عيسى عليه السلام . ويوجد سببان رئيسيان لهذا القرار. أولهمـا هـو أن محمـدًا ﷺ قـد لعـب دورًا أكثر أهمية في تأسيس وتطوير الدين الإسلامي من الدور الذي لعبه عيسى المسيح عليه السلام في تطوير الديانة المسـيحية . وعـلى الرغم من أن سيدنا عيسى عليه السلام يعتبر مسئولا عـن الجوانب الرئيسية الأخلاقية في الديانة المسيحية (من حيث اختلافها

عـن الأخلاقيات اليهودية) فلقد كان القديس بولس هو المسئول الرئيسي عـن تطويـر اللاهوت المسيحي وهو الذي وضع أسس الدعوة إلى الدين المسيحي والقديـس بولس هو الذي كَتَبَ كمية كبيرة من العهد الجديد . ولقـد كان محمـد ﷺ هو المسئول الوحيد عن الإسلام في جانبه اللاهوتي ، وجانـبه الأخلاقـي عـلى حـد سـواء . وبالإضـافة إلى ذلك قـام محمـد ﷺ بـالدور الرئيسـي في وضـع أسـس الدعوة إلى دينه الجديد ، ووضع قواعد العـبادات في الإسـلام . ذلك بالحرف الواحد هو ما كتبه "مايكل هارت" في كتابه عن المائة (ص ٣٨ ، ٣٩).

❁ القديس بولس هو مؤسس الديانة المسيحية:

وطبقـا لما يقولـه "هارت" ، يتقاسم القديس بولس والمسيـح عليه السلام شـرف تأسـيس الديانـة المسـيحية ، وهـو "هـارت" يعتقد أن القديس بولس هو المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية .

وأنـا لا أستطيع أن أتفادى وأتجنب الاتفاق تمام الاتفاق مع "هارت" . من بين الكتب السبعة والعشرين التي يتكون منها العهد الجديد ، نجد أن أكثر من نصفها إنما هو من تأليف القديس بولس . ولو عقدنا مقارنة بين المسـيح عليه السلام وبين القديس بولس في هذا الصدد ، سنجد أن المسيح عليه السلام لم يكـتب كـلمة واحـدة مـن الكـتب السبعة والعشرين التي يتكون منها العهد الجديد .

ولـو أمكـن لـك – أيهـا القارئ الكريم– أن تضع يدك على الإنجيل المعـنون بعـنوان: "إنجيـل الحـروف الحمراء" ستجد كل كلمة يفترض أن

المسيح نفسه كان قد نطق بها مكتوبة بالحروف الحمراء وبقية الكلمات مكتوبة بلون آخر هو اللون الأسود المعتاد . ولا تندهش عندما تكتشف أن أكثر من ٩٠٪ مما يسمى بالأناجيل وما يسمى باسم إنجيل عيسى مكتوبة بالحبر الأسود !

هذا هو الاعتراف الصحيح بشأن ما يطلقون عليه اسم الإنجيل . وعند المواجهة الفعلية مع الإرساليات المسيحية ستجد أنهم يقتبسون ١٠٠ ٪ مما يذكرونه باعتبار أنه نصوص من الكتاب المقدس مما كتبه القديس بولس .

❁ لم يكن لسيدنا عيسى عليه السلام أتباع كثيرون في حياته:

قال عيسى عليه السلام : "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ".

(يوحنا ١٤-١٥) .

وقال أيضا : "فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعَلَّمَ الناس هكذا يُدْعَى أصغر في ملكوت السموات ...." (متى ٥-١٩) .

وأي شخص مسيحي يجادلك وتسأله : "هل أنت تحافظ على الوصايا؟" سيجيبك بقوله: "لا!" ولو سألته أيضا : "ولماذا لا تحافظ على الوصايا!" سيجيبك لو كان قد درس كتابه المقدس بقوله: "لقد دفنت الوصايا في الصليب" ! وهو يعنى بذلك أن الوصايا قد ضاعت بموجب قول أتباع المسيح بعد صلبه فيما يزعمون : "نحن نعيش الآن في عار !".

وفي كل مرة تواجه فيها أي شخص مسيحي بما قاله ربه وسيله المسيح عليه السلام ، فهو سيواجهك بشيء مما قاله بولس في رسائله إلى

الكورنثيين أو أهل غلاطيه أو أهل إفسوس أو إلى الفليبيين أو غير ذلك . ولـو أنك سألته : من هم أولئك الذين تذكرهم ؟ سيقول لك: "بولس ، بولـس ، بولـس!" ولو سألته: "من سيدك الذي تتبع دينه؟" سيقول لك: "عيسـى!" ولكـنه دائمـا سيعارض أقوال عيسى ﷺ بأقوال بولس الذي يؤمن بكل أقواله !

ولا يوجـد مسـيحي مـثقف واحد يعارض حقيقة أن المؤسس الحقيقي للمسـيحية هـو القديـس بولـس . وبـناء عـلى ذلـك وضع "مايكل هـ. هارت" المسيح ﷺ بالكاد باعتبار أنه رقم ثلاثة .

لمـاذا إغضاب الزبون ؟

ووضـع المسـيح ﷺ في المركز الثالث على هذا النحو على يد مايكل هـــ هـارت يضـع أمامـنا نحن المسلمين سؤالا بالغ الأهمية هو: لماذا ينشر مؤلـف أمـريكي كـتابا يصـل عـدد صـفحاته إلى (٥٧٢) صفحة في أمريكا ويـباع في أمـريكا بمبلغ خمسة عشر دولارًا للنسخة الواحدة ثم يجازف بأن يقول في كتابه كلاما من شأنه أن يغضب ويثير حفيظة القراء الذين يتوقع أن يقوموا بشراء كتابه ذاك ؟

مـن الذي سيشترى هذا الكتاب ؟ بالطبع ، لن يقوم بشراء نسخ هذا الكـتاب باكسـتانيون ولا بنجلاديشـيون ولا عرب ولا أتراك ! وذلك فيما عـدا بعـض نسخ قليـلة من الكتاب تباع هنا أو هناك ، نجد أن العـدد الأكبر من الزبائن الذين سيشترون الكتاب سيكونون من بين ٢٥٠ مليون مسـيحي وستة ملايين يهودي في أمريكا . لماذا إذن يغضب المؤلـف زبائنه ؟ ألم يسمع بالحكمة المشهورة التي تقول: "الزبون على حـق !" لقد سمع بها

طبعا . فما هو السبب إذن في اختياره الجرىء بوضع محمد ﷺ على رأس قائمة المائة شخص الأكثر تأثيرا في العالم ؟ وقبل أن أنهي هذا الاقتباس من كتاب هارت سأقتبس اعتذاره الأخير عن قراره ذاك ، إذ يقول مايكل هارت بالحرف الواحد ما نصه كما يلي: "إن اختيار محمد ﷺ ليكون على رأس قائمة أكثر الأشخاص تأثيرا يجوز أن يدهش بعض القراء ويجوز أن يثير التساؤل لدى أشخاص آخرين ، ولكنهَ ﷺ كان هو الرجل الأوحد في التاريخ الذي اكتمل له التوفيق التام على المستوى الديني وعلى المستوى الدنيوي." (كتاب المائة: ترتيب أكثر الأشخاص تأثيرا في التاريخ- نيويورك: شركة هارت للنشر ، سنة ١٩٧٨ - ص ٣٣) .

❁❁❁❁❁

❁ مَـن الذين كانوا أعظـم قادة في التاريخ:

(مجلة تايم الأمريكيـة في ١٥ يوليه ١٩٧٤)

جعـلت مجلة تايم العالمية الشهيرة هذا الموضوع هو موضوع الغلاف . وكـان يوجد بداخل المجلة مقالات كثيرة تحت مختلف العناوين مثل: ما هى مقومـات القـائد العظيـم ؟ وأيضـا : على امتداد التاريخ ، من الذي يقدِّر عظمـة العظمـاء ؟ وقـامت مجـلة تـايم بسؤال مجموعة من المؤرخين وكبار الكُـتَّاب ورجـال الأعمـال وغيرهـم عن اختيار كل منهم في هذا الصدد . ووصف كل منهم مرشحه للعظمة في ضوء تقديره بطريقة موضوعية بقدر الاستطاعة البشرية طبقا لدراسة كل منهم وما أتيح له من معرفة سابقة .

❁ مَـن يعرف الدكتور سالازار :

اعـتـدت وكـان يسـرني دائما أن أصطحب أشخاصا غير مسلمين في جولة داخل مسجد في هامبشاير الجنوبية ، وهو "مسجد الجمعة"في مدينة ديربان في جنوب إفريقيا .

وفي إحـدى المناسبات كنت أستضيف اثنين من البرتغاليين هما رجل وزوجـته . وفي مرحـلة مـن مـراحل المناقشة معهما قال الرجل البرتغالي: "الدكـتور سـالازار كـان أعظم رجل في العالم !" ولم أجادله في ذلك لأنني كـنت أعـرف القـليل عـن الدكتور سالازار فيما عدا أنه في وقت ما كان دكـتاتورا في الـبرتغال فعـل الكـثير من أجل أمته . وكان الزائر على كل حـال يتكلم في حدود معارفه الخاصة به كمجرد وجهة نظر ، وحكم مسبق لديه .

❁ محمد ﷺ يستحيل تجاهله :

يبدو أن أولئك الذين شاركوا في الدراسة التي أجرتها مجلة تايم عن العظماء في العالم لم يستطع واحد منهم أن يتجاهل محمدًا ﷺ .

ولقد سجل المؤرخ الأمريكي وليام ماكنيل ، وهو أستاذ التاريخ في جامعة شيكاغو بشهادته قائلا بالحرف الواحد: "لو كنا نقوم بقياس القيادة قياسا شاملا سيكون لدينا أسماء هؤلاء القادة العظام في التاريخ: المسيح عليه السلام ، بوذا ، محمد ﷺ، كونفوشيوس ، وهم أعظم الأنبياء في العالم ...... "

ولم يخض "ماكنيل" في التفاصيل ، ولم يعط أي تفسير عن السبب في أنه قد ذكر عيسى عليه السلام أولا قبل محمد ﷺ الذي جعل ترتيبه في المرتبة الثالثة ، وربما كان ذلك بسبب قوة العادة . ومن المحتمل جدا أن "ماكنيل" مسيحي الديانة ، وعلى كل حال لن نناقشه في ذلك ثم يأتي : "جيمس جافين" الذي يوصف بأنه رجل القوات المسلحة الأمريكية ، وهو جنرال متقاعد ، وهو يقول:

"من بين القادة الذين أحدثوا أعظم تأثير في العالم عَبْرَ الأجيال أعتقد أن أبرزهم هو محمد ﷺ ، وعيسى المسيح عليه السلام ، وربما نعتبر أن منهم أيضا لينين" ، ومن الممكن أن نعتبر منهم أيضا "ماو" وبالنسبة للقائد الذي نستطيع أن نستفيد من مميزاته الآن فأنا أختار "جون فيتز جيرالد كيندي"

ولا يقول الجنرال المتقاعد أكثر من ذلك ، ومع ذلك يلزم أن نوجه إليه التحية. إنها إيماءة عظيمة أن يكتب اسم محمد ﷺ قبل المسيح عليه السلام ، ولم يكن ذلك مجرد سهو أثناء الكتابة .

ونصـل الآن إلى رأي "جـول ماسـرمان" المحـلل النفسـي الأمـريكي وأسـتاذ عـلم الـنفس في جامعـة شـيكاغو ، وهـو يعطيـنا مـا لم يُعْطنا إياه المشاركون الآخرون بالرأي في هذا الموضوع . إنه يعطينا السبب الذي من أجله يختار أعظم القادة في نظره تأثيرا في العالم في كل العصور .

إنـه يـريدنا أن نكتشـف مـا ينـبغي أن نبحث عنه في الرجل الأعظم تـأثيرا في العـالم وأن نكتشـف المميـزات الـتي تجعلنا نفرزه من بين سائر الـناس الذين عاشوا معه . ويجوز لنا أن نبحث عن وجود أي مجموعة من الميزات كما كان الشأن بالنسبة إلى "مايكل هـ هارت" إذ كان يبحث عن الشخص الذي أحدث أعظم تأثير .

وعلى كل حال ، لا يريدنا "ماسرمان" أن نعتمـد على الخيال أو على أحكامـنا المسـبقة ، بـل هـو يريد أن يضع لنا المقاييس الموضوعية لإصدار الأحكـام قـبل أن نخـلع صـفة العظمـة على أي شخص . وهو يقول : إن القادة يلزم أن يؤدي كل منهم ثلاث وظائف في غاية الأهمية .

◂ والوظيفـة الأولى للشـخص العظيـم القائد هى أن يحقق مصلحة للجماعة التي يقودها ....

إن القـائد ، أيـا كـان ، يجـب أن يكـون مهتما بمصلحتك لا أن يكون مهتما بمسألة حَلب الأبقار أو كسب الأموال إشباعا لمطامعه مثل القسيس المدعـو "جيـم جونز" بمدينة جونستان في ولاية جيانا الذي ذاعت شهرته كداعيـة للانـتحار الجمـاعي . وأنـتم ستتذكرونه باعتبار أنه الرجل الذي ارتكـب في خاتمـة مطـاف حياتـه الانـتحار الجماعي مع ٩١٠ أشخاص من أتباعه في وقت واحد .

لقد كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تقتفي أثره ، وكان على وشك أن يتم القبض عليه لارتكابه بعض المخالفات القانونية ، ولكن ، قبل أن يتم القبض عليه فلقد اعتقد أنه من الحكمة أن يتولى إعدام نفسه بنفسه مع إعدام كل أتباعه في الوقت نفسه حتى لا يبقى منهم أحد لكي يشهد ضده . وخلط مشروب الليمون بسم السيانيد وأوعز إلى أتباعه أن يشربوه ، وفعلوا ذلك ، وماتوا كلهم مجللين بالعار ، وفي الوقت نفسه اكتشفت السلطات أن القس المدعو جيم جونز كان قد ابتز خمسة عشر مليونا من الدولارات وأودعها في حسابه في بعض البنوك في أنحاء مختلفة من العالم . وكان ضحاياه بمثابة أبقار يقوم هو بابتزازها ، وكان هو يبتز أموالهم لكي يشبع شهوته في الحصول على المال الوفير إرضاء لنهمه وطمعه . والبطل في نظر "ماسرمان" يلزم أن يكون موجودا لكي يفيد أتباعه وأعوانه دون أن يكون كل هدفه هو منفعته الشخصية .

◂ **والوظيفة الثانية هي أن القائد الحقيقي يجب أن يوفر لأتباعه نظاما اجتماعيا يشعر فيه الناس بالأمن :**

على النقيض من الماركسيين ، والفاشيين ، والنازيين ، والنازيين الجدد ، والأشكيناز ، والصهاينة ، وكل من نهج نهجهم ممن لم يذكرهم ماسرمان صراحة في مقالته بمجلة تايم يجب أن يكون القائد الحقيقي الجدير بالقيادة . ولكن معتقدات ومشاعر ماسرمان واضحة كل الوضوح في هذا الصدد . إنه يبحث عن قائد سيقدم لقومه نظاما اجتماعيا يوفر حرية النفس لكل فرد ويحرر الفرد من الأنانية والجشع والتمييز العنصري ، لأن هذه المذاهب بموجب تكون اللفظ الذي تتخذ منه اسما لها يحمل كل منها بداخله بذور دماره وانهياره .

ويصور "عبد الله يوسف علي" المجتمعات الفاسدة التي ينبغي ألا ينسج القائد الناجح نسيج مجتمعه على نسجها بقوله :

"لا يزال لدينا – مع كل الأسف – كثير مما يؤسف وكثير من الخطيئة، وانعدام العدالة ، والظلم ، والممارسات الخاطئة ، والكراهية . ولا تزال ممارسة العدوان على الآخرين تفضي إلى موت الضمير ، وتنهب فتات الخبز حتى لا تقتات بها أرواح الكادحين ، وتسلب الشفقة من القلوب عندما يتم سحق لحوم البشر في تراب الأرض . ولا يزال الجهل ينفخ في أبواق الجاهلين العالية الضجيج لكي يتم طمس وتشويه الحكمة الحقيقية. ولا يزال بعض الناس يسوقون أمامهم العبيد ..... معارضين بذلك نهاية العبودية والاستعباد ! ولا يزال الطمع يلتهم الضعفاء ويمسك بهم بمخالب الجشع ...... بل هنالك ما هو أكثر من ذلك ..... ضاع صوت الفرد في ضجيج الغوغائية لدى الدهماء ولدى الحشود التي تهتف هتافات مجنونة بصرخات الحروب الجديدة ...... إنها هى هى نفس الحماقات القديمة التي طال استنكارها ".

◄ **والوظيفة الثالثة للقائد الحقيقي هى أن يكون قادرا أن يمد أتباعه بمجموعة متسقة من العقائد الصحيحة :**

ومن السهل أن يتحدث أي شخص عن أخوة الإيمان بعقيدة واحدة أو عن الأخوة البشرية ، ولكن نجد في جمهورية جنوب إفريقيا اليوم ألف نِحلة دينية ونحلة ، ونجد التمييز العنصري بين ذوى البشرة البيضاء (المنحدرين من أصول أوربية) ويبلغ عددهم ثلاثة آلاف شخص وبين السود (المنحدرين من أصول إفريقية) .

وكنائس ذوي البشرة البيضاء تفرخ الآن كثيرا من القساوسة ذوي البشرة السوداء بسرعة فائقة ، ولكن طوال ما يزيد على ثلاثمائة سنة من الغزو الأوربي لأقطار إفريقية لم يعملوا على تخريج وترسيم قسيس واحد من ذوي البشرة السوداء . وحتى الآن ، لا يستطيع ذو البشرة السوداء ، وذو البشرة البيضاء ، والملونون ، والهنود أن يصلوا داخل كنيسة واحدة في معظم الكنائس الإصلاحية الهولندية . والكراهية بين أصحاب المذاهب والملل المسيحية قد وصفها بدقة تامة الإمبراطور المسيحي "جوليان" عندما قال :

"لا توجد حيوانات مفترسة متوحشة تناصب الإنسان العداء بقدر ما تناصب المذاهب المسيحية بعضها البعض الآخر العداء". (أورده : سيد أمير علي في كتابه : روح الإسلام ص ١١١) .

وباستخدام المعايير الثلاثة السابق ذِكْرُها يبحث ويحلل ماسرمان شخصيات شهيرة مثل: لويس باستير ، وسالك ، وغاندي ، وكونفوشيوس ، والإسكندر الأكبر، وهتلر ، وبوذا ، وعيسى عليه السلام و الأنبياء الآخرين عليهم السلام ، ويصل في نهاية بحثه وتحليله إلى أن يقول:

"ربما كان أعظم قائد في كل عصور التاريخ هو محمد ﷺ ، فهو وحده الذي جمع المزايا الثلاث ، والوظائف الثلاث للقائد ، وكان موسى عليه السلام أقل منه درجة".

ونحن لا نستطيع أن نتفادى الإعجاب بنزاهة وإنصاف وموضوعية ماسرمان ، فهو ، وهو اليهودي لم يتردد في أن يعتبر أدولف هتلر أيضا واحدًا من عظماء التاريخ الذين عرض لهم بالدراسة كواحد من القادة الكبار . وكان جنسه الآري ، وكانت الأمة الألمانية العظمى التي يصل تعدادها إلى تسعين مليون نسمة آنذاك ، وكانت الأمة الألمانية كلها مقتنعة

كـل الاقتـناع مسـتعدة كـل الاسـتعداد أن تمشي وراءه حتى تبلغ مصيرها المحـتوم أو دمارهـا الـتام . إن هتـلر للأسـف الشديد قد قـاد أمته إلى دمار أكيـــد .

وليـس هتلر هو موضوع بحثنا . موضوع بحثنا هو البحث عن السبب الـذي جعـل ماسـرمان ، وهـو يهـودي أمـريكي ، ومأجور يعمل في خدمة الحكومـة الأمريكية يعلن إلى مواطنيه الأمريكيين الذين يبلغ عددهم ما لا يقـل عـن مائتي مليون نسمة من المسيحيين واليهود أن أعظم قائد في كل عصور التاريخ لم يكن عيسى ﷺ ولم يكن موسى ﷺ ، ولكن أعظم قائد في كـل عصـور الـتاريخ في نظـر ماسرمان هو محمـد ﷺ . هذا هو ما يلزم بحثـه .

ماذا يقول المتشككـون ؟

إن مـايكل هــ هارت قد وضع محمـدًا ﷺ كرقم (١) في قائمته وهو قد وضـع إلهـه ومُخَلِّصَه عيسى ﷺ باعتبار أنه رقم (٣) . لماذا ؟ هل هو مرشُوٌّ أعطاه أحد رشوة كبيرة لكي يفعل ذلك ؟

وليام ماكنيل يعتبر أن سيدنا محمـدًا ﷺ يستحق من التكريم والتعظيم مـا يجعلـه يضـمه إلى قائمـة أول الأسمـاء الـثلاثة للشخصـيات المؤثرة في الـتاريخ . لمـاذا ؟ هـل كان وليام ماكنيل مَرْشُوًّا ؟ جيمس جافن يضع اسم سـيدنا محمـــد ﷺ قـبل اسـم المسـيح ﷺ . لمـاذا ؟ هل كام جيمس جافن مَرْشُوًّا ؟

جـيمس ماسـرمان قد حكـم أيضا بأن سيدنا محمـدًا ﷺ هو الأول عند تـرتيب أولويـات الأشـخاص الأكـثر تـأثيرا في الـتاريخ بيـنما وضع نبي

اليهوديـة التي كان يعتنقها ماسرمان ، موسى عليه السلام ، باعتبار أنه الثاني بعد سيدنا محمـد ﷺ لماذا ؟ هل كان جيمس ماسرمان مَرْشُوًّا ؟

ويقـول تومـاس كارلايل في هذا الصدد: "هل يجوز لنا أن نفترض أن كـل هـذا المديح لنبي الإسلام محمـد ﷺ . كان يقوم على أساس من القدرة عـلى الاحـتيال والشعوذة ، والقدرة على خداع عقول الناس اعتمادًا على القـدرة عـلى خداعهم.... ؟ إنني ، من جانبي ، لا أستطيع أن أقبل مثل هذا الافتراض بأي حال من الأحوال ... وإن الإنسان لابد أن يجد نفسه في حيرة ويجـد نفسـه علجزا عـن تفسـير حالـة البشرية لو انتشرت عقائد طائفة الكويكرز مثل انتشار الإسلام في العالم ".

ويسـتطرد كـارلايل ليقول: "وبعد ذلك ، تَنْصَبُّ السخريات على أي شـخص يقول قولة حق وصدق عن محمـد ﷺ أو عن الإسلام كما لو كان مَرْشُـوًّا مـن العرب ! إنهم يبالغون في قدرة العرب على ذلك . وأنا أكرر القـول بـأن هذا ممكن (من الناحية النظرية) ولكنه مستحيل (من الناحية العملية) .

وأثـناء الحـرب العالميـة الـثانية ظهـر في دولـة الـنرويج "كويسلنج" واحـــد . ولقد حوكم كويسلنج بتهمة الخيانة وتم إعدامه (*) . وليس من المعقـول أن تكـون أمريكا وأن يكون الغرب كله من نسل كويسلنج لكي يقـع تحت تأثير الدولارات البترولية القادمة من الشرق الأوسط في مقابل الاعـتراف بعظمـة نبي الإسلام ﷺ وفي مقابل احترام الإسلام والمسلمين .

(*) المعنى هو أن القائد الذي يخدع شعبه وأتباعه ، يكتشف الناس حقيقة خداعه . ولم يكن نبي الإسلام ﷺ مجرد شخص بارع خدع قومه من العرب السذج كما يشيع المتعصبون ضد الإسلام ذلك ، بل كان ﷺ نبيا صادق النبوة والمنصفون للنبي ﷺ جديرون بالاحترام ولا يستحقون أي اتهام . (المترجم)

ولا يـليق أن تـتجه الاتهامـات إلى المفكـرين الشجعان المخلصين بسبب أحكامهم العادلة المنصفة لنبي الإسلام ﷺ . يجب علينا جميعا أن نحترمهم .

إننا نستطيع أن نستخلص بحق أن الله الرحيم الذي يعلم دوام العلم الجهـود المخلصة لعباده إنما يحقق وعده الإلهي لنَبِيِّه المختار محمـد ﷺ عندما خاطبه في القرآن الكريم إذ قال له سبحانه وتعالى :

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (سورة الشرح : ٤).

وهـــذا الوعد الإلهي أن يرفع الله ذكر خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يمكن التعبير عنه بغبارات أخرى مثل :

أ – ألـم نجعل ذِكْرَك ذائعا بين الناس على تعاقب الأجيال ؟

ب– ألـم نجعل اسمك معروفا مشهورا لدى كل الناس ؟

جـ– ألـم نجعلِ لك شهرة واسعة النطاق في كل أنحاء العالم ؟

الأصـدقاء والأعـداء ، والعـلماء المنصفون من أتباع الأديان الأخرى ، مجـبرون عـلى أن يُـزْجوا المديح والثناء والاحترام لنبي الإسلام العظيم ﷺ كمـا لو كانوا مسوقين إلى ذلك بقوة قاهرة خفية . ولكن الله العلى القدير يأمـر كـل مخـلوقاته جميعـا حتى الشيطان نفسه ليكون في خدمته ولتحقيق مشـيئته كما حدث ذلك بالنسبة إلى المسيح عليه السلام كما نجـده في إنجيـل متـى (٤: ١–١١) . حـتى الشيطان نفسه يؤدي دوره المرسوم له كما يشهد بذلك الإنجيل في الموضع المشار إليه .

والبروفيسـور "ك . راماكريشـنا" وهـو فيلسـوف هندوسـي في كتابه الموسـوم باسـم : "محمـــد نـبي الإسـلام ﷺ" يقتـبس بعـض أقـوال كبير

الشياطين ، أدولف هتلر لكي يبرهن على تفرد محمد ﷺ **بالعظمة** المنقطعة النظير .

إن البروفيسور راماكريشنا مثله في ذلك مثل جولز ماسرمان الذي عمد إلى قياس عظمة محمد ﷺ وفقا لثلاثة معايير (انظر الملحق رقم (C)-ص ٦٣) قد وجد في أقوال هتلر ، في كتابه المعنون بعنوان "كفاحي" ثلاثة أوجه لجوهر العظمة ، أو ثلاثة مقاييس لعظمة العظماء ، ومن النادر أن تتاح مجتمعة لشخص واحد كما عثر عليها مجتمعة لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام .

يقول أدولف هتلر في كتاب كفاحي : "من النادر أن يكون صاحب نظرية عظيمة قائدا عظيما ، والشخص الذي يستطيع تحريك حماس الجماهير من النادر أن يجمع بين هاتين الميزتين . إنه قائد جدير بالقيادة . ذلك أن القيادة تعني القدرة على تحريك الكتل الضخمة من الجماهير . وموهبة ابتكار الأفكار لا يوجد رابطة تربطها بالقدرة على القيادة ".

ثم يستطرد هتلر قائلا : (بعد أن فصل بين القدرة على القيادة والقدرة على ابتكار الأفكار الجديدة) : "والاتحاد أو المزج بين صاحب النظرية الجديدة ، والشخص القادر على تنظيم الجماهير ، والقائد القادر على قيادة الجماهير ظاهرة نادرة الحدوث في العالم ، وفي ذلك تكمن عظمة العظماء".

ويعقب البروفيسور "راماكريشنا راو" على ذلك النص الذي اقتبسه عن هتلر بقوله : "في شخص نبي الإسلام ﷺ شاهد الناس فعلا هذه الظاهرة النادرة الحدوث ، ظاهرة اجتماع القدرة على صياغة أفكار

ونظـريات جديـدة ، وظاهرة القدرة على تحريك الجماهير ، وظاهرة القدرة عـلى القيـادة الفعـلية لـلجماهير تجـتمع عـلى وجه الأرض لأول مرة في شـخص حقيقي من لحم ودم يمشي على قدميه فوق سطح الأرض ألا وهو نبي الإسلام ، محمـد ﷺ ".

❁ مشاركة في نفس الرأي :

وقبل أن يتهم أحد البروفيسور "راماكريشنا" بخطأ الرأي أو بالرشوة، نقدم بين يدي القارئ الكريم عددا قليلا من بين كثير ممن أعجبوا بعظمة نبي الإسلام محمـد ﷺ :

(١) "كـان محمـد ﷺ هو روح الرحمـة ، ولقد ظل تأثيره باقيا خالدا عـلى مـر الـزمان لم ينسـه أحــد مـن الناس الذين عاشوا حوله ولم ينسه الـناس الذيـن عاشـوا بعده ." (البروفيسور الهندي: ديوان شاند شارما في كتابه المعنون بعنوان: "أنبياء من الشرق" - كالكوتا ١٩٣٥ - ص١٢٢).

(٢) " بعــد مضــي أربعة أعـوام لوفاة الإمبراطور ستنيان في سنة ٥٦٩م ، وُلِدَ في مكة في شبه الجزيرة العربية الرجل الذي مارس أعظم تأثير عـلى كـل الـرجال في العالم". (دكتور جون وليام درابر في كتابه : "تاريخ التطور الفكري في أوروبا -لندن- ١٨٧٥ ."

(٣) " أشـك في إمكانيـة وجود رجل تغيرت الظروف من حوله ، واسـتطاع أن يغـير نفسـه لـيتوافق مع تغير الظروف من حوله على هذا الـنحو الذي تحقق لمحمـد ﷺ ." (والمعنى أن محمـد ﷺ قد نجح نجاحا تاما في مواجهـة أصـعب الظـروف ونجح نجاحا تاما في التغلب على كل العقبات

التي اعترضت طريق رسالته). (ر.ف.ك. بودلي في كتابه : "الرسول" لندن ١٩٤٦- ص ٩).

(٤) " لقد عكفت على دراسة كل تفاصيل سيرته - إنه الرجل الفذ العظيم- وهو من وجهة نظري غير مُعَادٍ وغير معارض للمسيح عليه السلام • ومن اللازم أن نطلق عليه اسم منقذ البشرية ." (جورج برنارد شو في كتابه: "عظمة الإسلام-المجلد الأول رقم ٨١٩٣٦) .

(٥) " بمصادفة فريدة كل التفرد في التاريخ يعتبر محمد ﷺ مؤسسا لأمة من الأمم ، ومؤسسا لإمبراطورية من أكبر الإمبراطوريات ، ومؤسسا لدين من أعظم الأديان ." ر. بوسويرث سميث في كتابه: "محمد ﷺ والديانة المحمدية-١٩٤٦) .

(٦) " كان محمد ﷺ هو الشخصية الأكثر نجاحا بين كل الشخصيات الدينية ." (الإنسيكلوبيديا البريطانية-الطبعة الحادية عشرة) .

❁❁❁❁❁

{ الفصــل الثانــى }

فيما مضى من التاريخ

ليـس من الصعب أن نذكر عشرات المقولات التي تمتلئ بالمديح لدى المعجبين والمؤرخين الذين عرضوا لحياة سيدنا محمـد ﷺ بالدراسة والنقـد وذلـك بالـرغم مـن موضـوعيتهم الصـارمة وعقولهم الجامدة الحاقدة التي كانت تجنح أحيانا إلى شيء من التحامل الناجم عن الحقد أو سوء الفهم ، وندع ذلك كله لكي نعود إلى ما مضى من التاريخ .

لقـد كـان ذلـك يوم الجمعة الثامن من شهر مايو عام ١٨٤٠ أي منـذ حوالـي مائـة وخمسين عاما مضت ، عندما كانت أي كلمة طيبة عن محمـد ﷺ تعتـبر خطيـئة لا تغـتفر ، وعـندما كان الغرب المسيحي قد طال تدريبه عـلى أن يكره محمـدًا ﷺ وأن يكره دينه بنفس الطريقة التي كانت تدرب بها الطلاب في موطني في جمهورية جنوب إفريقيا على أن تكره الناس ذوي البشـرة السـوداء . في ذلـك الوقت من القرن الذي مضى ، قَدَّمَ "توماس كـارلايل" ، وهـو واحـد من أعظم المفكرين في القرن الماضي سلسلة من المحاضرات تحت عنوان : "**الأبطال وعبادة البطـل** ".

❁ تطوير المرض:

واستعرض كارلايل ذلك الحكم المسبق الأعمى لدى قومه في بداية حديثه إليهم . وأشار كارلايل إلى واحد من عمالقة الأدب في الغرب وهو الأستاذ الهولندي "هوجو جرتيوس" الذي كان قد كتب مقالة مليئة بالمطاعن المريرة المفتراة ضد نبي الإسلام ﷺ . وكان "هوجو جرتيوس" قد زعم كذبا أن النبي ﷺ كان قد درب مجموعة من الحمائم على أن تلتقط بعض حبوب البازلاء من أذنه لتعتاد الحمائم النزول فوق كتفيه ليستطيع بهذه الخدعة أن يوهم أتباعه أن الحمائم تجيء إليه بالوحي من الله ، ولم يكن الله يوحى إليه حقا بأي شيء مما كان يكتبه محمد ﷺ بعد ذلك في القرآن زاعما لقومه أنه وحي أوحاه الله إليه . وربما كان "هوجو جرتيوس" قد استعار هذه الفرية على نبي الإسلام ﷺ من قراءته في كتابه المقدس قول إنجيل متى إذ يقول بالنسبة إلى المسيح ﷺ ما يلي بالحرف الواحد : "فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء . وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ".

(إنجيل متى ٣: ١٦) .

وعندما طلب شخص اسمه "باكوك" وكان متفتح الذهن مثل توما المتشكك (في الجملة الخامسة والعشرين من الأصحاح العشرين من إنجيل يوحنا) عندما طلب دليلا على تدريب محمد ﷺ للحمائم أن تنزل على كتفيه لكي تلتقط الحبوب من أذنيه أجابه جروتيوس بقوله : " لا يوجد دليل ! "

❁ أين الدليل على صحة الزعم ؟

إن جروتيوس بالضبط كان يشعر أنه يجب أن يخترع هذه القصة لكي يدخل السرور إلى آذان مستمعيه . كانت هذه القصة المفتراة بالنسبة إليه وإلى مستمعيه أقرب إلى الصدق من أن يكون الوحي الإلهي قد حدث فعلا بالنسبة إلى سيدنا محمد ﷺ . ولقد كان مثل هذا الافتراء الخرافي يثقل على قلب كارلايل ويفزعه لدرجة أن أخذ يصرخ في مستمعيه قائلا لهم بالحرف الواحد :

"هذه الأكاذيب التي أملاها التعصب المقصود عن عمد بشأن هذا الرجل إنما هى عار وشنار علينا نحن أنفسنا ولا تشينه بأي حال من الأحوال".

❁ النبي البطل :

لقد كان كارلايل رجلا يتصف بالعبقرية ووهبه الله موهبة القدرة على النفاذ إلى حقائق الأمور ، والقدرة على توضيح تفاصيل الأفكار . ولقد كان يريد بطريقته الفذة الماهرة في تناول الأمور أن يضع الحقائق والمعايير في وضعها الصحيح . وخطط أن يلقى على الناس محاضرة واختار لتلك المحاضرة موضوعا مثيرًا يشد الانتباه هو "البطل عندما يكون نبيًا من الأنبياء ". واختار كارلايل أن يكون البطل النبي موضوع دراسته هو محمد ﷺ وليس هو موسى عليه السلام أو داود أو سليمان أو المسيح عليهم السلام . إنه محمد ﷺ . ولكي يرضى كارلايل غرور مواطنيه من المسيحيين الإنجليكانيين المنتمين إلى الكنيسة الإنجليكانية في إنجلترا اعتذر عن اختياره ذاك بقوله لهم: "وحيث إنه لا يوجد أي خطر يتمثل في أن نصبح أو

يصبح أي واحد منا من أتباع الديانة المحمدية ، فأنا أعتزم أن أقول كل ما يمكن أن أقوله بحق وصدق عن مزاياه ".

وبكلمات أخرى ، كان هو ، وكان مستمعوه ، وهم من صفوة المسيحيين متحررين من خوف التحول إلى اعتناق الإسلام ، وكانوا جميعا دون أي استثناء يستطيعون إزجاء بعض الأحكام المنصفة بالنسبة إلى محمد ﷺ . ولو كان عنده أي مخاوف بشأن قوة إيمانهم لما قام بهذه المخاطرة .

وفي بيئة تمتلئ كل الامتلاء بالكراهية والحقد نحو أي شيء إسلامي وبالنسبة إلى جمهور من المستمعين تسيطر عليه الشكوك والمشاعر العدوانية استطاع كارلايل أن يطلق سراح كثير من الحقائق المضيئة المشرقة المشرفة المتصلة بالبطل الذي اختاره مثالا لبطولة الأنبياء في مجال النبوة وكيفية أداء الأنبياء لرسالة السماء في شخص سيدنا محمد ﷺ . والمدح ينبغي أن لا يحرم منه من يستحق المدح . وهذا على وجه التحديد هو ما يعنيه اسم "محمد" ﷺ . إن لفظ محمد يعني بالضبط الشخص الجدير بالحمد والمدح والثناء . وهنالك مواضع في محاضرة كارلايل عن نبي الإسلام ﷺ ، وهنالك تعبيرات وردت على لسان كارلايل في هذا الصدد التي ربما لا يرضي المسلم المفعم القلب بالإيمان بعقائد الإسلام ، ولكن الإنسان المسلم يمكن له أن يتغاضي عنها لاحتمال وجود قصور في فهم كارلايل لها خصوصا عندما نضع في اعتبارنا أن كارلايل بلجترائه على إزجاء الإعجاب والمدح لسيدنا محمد ﷺ فلقد كان في حقيقة الأمر يمشي فوق حبل مشدود من الحبال الثقافية . والمشي فوق حبل ثقافي مشدود

محفوف دائما بالمخاطر ، ولقد نجح كارلايل في المشي على ذلك الحبل الثقافي المشدود بوجه عام نجاحا منقطع النظير .

لقد أزجى كارلايل إلى بطلنا كثيرًا من المديح المتوهج الحماسي بأسلوب كارلايل البارع العبقري ، ودافع عنه كارلايل دفاعا مخلصا ضد الاتهامات الزائفة وضد الافتراء الزائف الذي مارسه الغرب المسيحي لتشويه صورة النبي ﷺ تشويها لا أساس له من الصحة ،بالضبط كما فعل النبي ﷺ في دفاعه عن المسيح عليه السلام ودفاعه عن أم المسيح عليها السلام .

وفيما يلي نماذج مما قاله كارلايل حرفيًا في هذا الصدد ، قال:

❁ أمانته وإخلاصه:

أ- "كانت أمانة الرجل العظيم وإخلاصه في حمل الأمانة من النوع الذي لم يكن يستطيع أن يجيز فيه لنفسه أن يتحدث عنه أو يطريه ، بل إنه على النقيض من ذلك كان كل وعيه منصرفا إلى الحذر من أن تتسلل إلى نفسه ذرة من ذرات انعدام الأمانة ، وأي رجل ذلك الرجل الذي يستطيع أن يمشي كما ينبغي لمدة يوم واحد وهو يحمل فوق كتفيه مسئولية الحفاظ على شريعة الله الحقيقية ؟ لا ، إن الرجل العظيم لم يكن يفاخر بنفسه أبدًا باعتبار أنه مخلص وأمين في أداء رسالته إلى الناس . وأكثر من ذلك فهو لم يسأل نفسه ما إذا كان يتصف بالأمانة والإخلاص . وأنا أميل إلى القول بأن أمانته وإخلاصه في أداء رسالته من الله إلى الناس لم ينبعا من داخل نفسه ، بل كانت أمانته وكان إخلاصه من الله وبقدرة الله وإرادته ،

ولم يكـن محمــد ﷺ يسـتطيع أن يحيـد عن أن يكون مخلصا في أداء رسالته من الله إلى الناس ." (الأبطال وعبادة البطولة - ص٥٩) .

ب - "نَفْسٌ عظـيمة تؤثـر الصـمت . لقـد كان ﷺ واحـدًا من الـناس الذيـن يسـتحيل أن يكون الواحد منهم غير جاد . إنه شخص قد قــدت نفسـه لـتكون نفسًـا أمينة مخلصة . وبينما يمشي الآخرون في غمار *الأنمـاط السـلوكية المألوفـة بـين الـناس ومـا يشاع بين الناس من مجموع* الأنمـاط السـلوكية في الأفعـال والأقـوال والسـرور يغمر نفوسهم بذلك الـنوع مـن أنماط السلوك الشائعة بين الناس ، كان محمـد ﷺ يعيش حياته مـنعزلا عـن الناس متفردا مبتعدًا بنفسه عن ممارساتهم اليومية الممجوجة الشائعة بينهم يتأمل حقائق الأمور ....

ومثـل هذا الإخلاص كما اتفقنا على تسميته كان في حقيقة أمره شأنا إلهيـا اقتضته مشيئة الله وإرادته ليكون صفة يتصف بها هذا النبي العظيم ﷺ . إن كـلمـة مـثل هـذا الـرجل إنمـا هى صوت ينطلق من صميم قلب الطـبيعة ذاتهـا . ويـنبغى على الإنسان أن يصغي إلى هذا الصوت وحـده وأن يطيعـه ، ولا يصـغي ، ولا يطيـع أي صوت آخر .... لأن كل صوت آخر إنما هو صوت عصف الرياح لا فائدة فيه بالمقارنة بالصوت النابع من صميم قلب الطبيعة ."(الأبطال وعبادة البطولة -ص٧١) .

وفي غضـون محاضـرته الطويـلة ، لم تـتح الفرصة بالنسبة إلى كارلايل لكي يوضح مصادر ملاحظاته التي ساقها في تفاصيل محاضرته تلك . ويجوز لـي أن أقـدم بـين يـدي القارئ الكريم حادثة من الأحداث الواقعية التي تعـبر عن أعلى درجات الإخلاص والأمانة في أداء محمـد ﷺ للوحي الذي

أوحـــاه الله إليه في القرآن الكريم ، حتى لو كان ذلك الوحي الإلهي الذي أوحاه الله إليه يكشف عن سمة من سمات الضعف الإنساني ، التي عرضت في حياة النبي ﷺ وعاتبه الله عتابا رقيقا بشأنها .

عـتابٌ مـن الله وتحذيـرٌ لرسـول الله ﷺ كما أنزلهما الوحي الإلهي في القرآن الكريم:

كـان ذلـك في الأيام الأولى من بدء رسالة النبي ﷺ وتبليغه رسالة ربه إلى قومـه في مكـة . ولقـد كـان محمـــد ﷺ منهمكا كل الانهماك في محاولة إقـناع جماعـة مـن زعمـاء مكـة (بينهم أُبَيٌّ بن خلف ، وكان آنذاك زعيما مـرموقا) بـتعاليم دعـوة الإسـلام ، وكـان يـبدو أن أحدهـم (وهو أُبَيٌّ بن خـلف) كـان يـبدي كـثيرًا من الاهتمام ويبالغ في الاستفسار والإصغاء لما يقولـه النبي ﷺ وفي هذه الأثناء جاء رجل أعمى هو عبد الله ابن أم مكتوم يـريد أن يقطـع النبي كلامه مع أعضاء ذلك الوفـد من أشراف مكة لكي يشـرح له شيئا من كلام الله في القرآن الكريم . ولم يرد رسول الله ﷺ بأي كـلمة على عبد الله بن أم مكتوم ، ولكنه قطب جبينه وبدا أنه مستاء من مقاطعـة عـبد الله بـن أم مكـتوم لحديـثه مع وفد أشراف مكة ، وكأنما كان تقطيـب جـبين الـنبي ﷺ يعني الاعتراض على عبد الله بن أم مكتوم ناعيا عـليه عـدم الصـبر ، وكأنـه لا يرى ولا يدرك أنه بتعجله مقاطعته حديث الـنبي ﷺ ربمـا يضـيع فرصة أن يؤمن بعض أشراف مكة برسالته ﷺ . وأنا أعـتقد أن أي رجـل آخـر مـن بين الخطاة أو القديسين لم يكن ليُسَاءل أو يعاتـبه الله سبحانه وتعالى لمثل هذه الهنة الطفيفة ، ولكن لم يكن ذلك هو الشأن بالنسبة إلى محمـد ﷺ . ألم يختره الله ويكرمه بتلك المنزلة الرفيعة من

الخلق الكريم التي سجلها له القرآن الكريم في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤) ؟

❁ عبس :

وبينما كان ﷺ منهمكا في غمار مناقشته مع أشراف مشركي مكة، أنزل الله جبريل عليه السلام، وهو الملك المكلف بالوحي الإلهي ومعه هذا العتاب الإلهي للنبي ﷺ من أجل تلك المحنة التي سبق أن أشرنا إليها، وتمثل ذلك العتاب الإلهي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ (سورة عبس :١-٤) .

لقد كان من الطبيعي أن النبي الكريم ﷺ لم يكن يحب أن يقاطع حديثه أحد . وربما أصاب مشاعر الرجل الأعمى شيء من الأذى . ولكن النبي العظيم ﷺ الذي كان قلبه المفعم دائمًا بالعطف والحنو على الفقراء والبائسين تلقى من الله المزيد من النور الإلهي ليزداد عطفه عطفا وحُنُوُّه حُنُوًّا على الفقراء والبائسين . ولم يأنف، ولم يتردد ﷺ في أن يعلن إلى البشرية جمعاء على مر الزمان، وتوالى الأجيال، أنه قد أخطأ دون أي قَصْدٍ، أو تعمد للخطأ، إذ أعلن للناس عتاب ربه له لاهتمامه بشأن علية القوم من الأغنياء، والأقوياء، وانصراف اهتمامه عن الفقراء والضعفاء . كانت لفتة إلهية عظيمة المعنى والمغزى، وكانت شجاعة أدبية لم تخف من اللفتة الإلهية التي أزجاها الله إليه في آيات صدر سورة عبس أي معنى أو أي مغزى . أعلن النبي الكريم ﷺ الآيات التي عاتبه فيها الله لخطأ طفيف لم يكن متعمدًا، أعلنه إلى البشرية كلها، ورجع عن الخطأ

رجوعا تاما إذ كان يخاطب عبد الله بن أم مكتوم بعدها بقوله: مرحبا بمن عاتبني بشأنه ربي ! أيُّ تكريم للفقراء والضعفاء والمساكين أقوى من هذا التكريم الإلهي ؟! وأيُّ صراحة أقوى من هذا الصدق النبوي ! وعندما كان النبي ﷺ يغادر المدينة لشأن ما ، كان يستخلف نفس هذا الرجل ، عبد الله ابن أم مكتوم ليكون هو حاكم المدينة المنورة . وحدث ذلك مرتين وليس مرة واحدة . هكذا كان إخلاص وأمانة البطل النبي الذي اختاره كارلايل موضوعا لدراسته ، وهكذا صدقه ، وهكذا كانت أمانته .

❁ وفاؤه :

٢- كان وفاؤه ﷺ وفاءً لا تَحُدُّهُ حدود .... إنه ﷺ لم ينس أبدًا زوجته الطيبة الكريمة الأخلاق خديجة . وبعد وفاة زوجته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها بوقت طويل ، سألته زوجته الشابة ، وهى امرأة كانت تشعر بمكانتها المتميزة بين نساء النبي ﷺ ، وسألته يوما قائلة له :" ألست أنا الآن أفضل من خديجة ؟ . لقد كانت أرملة تقدم بها العمر ، وكانت قد فقدت رونق شبابها . ألست تحبني أنا أكثر مما كنت تحبها ؟ " فقال لها: " لا ، والله لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وآوتني إذ رفضني الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، ورُزِقْتُ منها الولد [١] وحُرِمتموه مِنّي." (الأبطال وعبادة البطولة ص ٧٦).

لقد كان التغلب على وسوسة الشيطان أكثر سهولة من التغلب على رغبة زوجة شابة جميلة بالغة الذكاء مثل السيدة عائشة -رضى الله

---

(١) حرصنا على عدم التغيير في رد النبي ﷺ على سؤال السيدة عائشة رضى الله عنها وفقا للمراجع الإسلامية . نزولا على مقتضيات الترجمة عن مؤلف غربي وإن كان المعنى واحدا في الحالتين. (المترجم)

عنها- بنت أبي بكر الصديق في الحصول على الإطراء من زوجها . ولم لا يسمعها زوجها شيئا من الإطراء الرقيق الذي يرضي غرورها ؟ إن هذا الإطراء لا ضرر فيه لأي شخص على قيد الحياة حتى روح أم المؤمنين السيدة خديجة -رضى الله عنها- ربما كانت تسامح مثل هذا الإطراء . ولا يوجد أي خداع في مثل هذه الأكذوبة البيضاء في حالة حدوثها . ولكن حادثة وقعت بالفعل تدل على عبقرية هذا الرجل العظيم ، والنبى الصادق الأمين ﷺ لكى تتجلى واضحة المعالم تلمحها كل العيون لكل البشر بعد أربعة عشر قرنا من حدوثها .... إنه الصدق . إنه الاعتراف بالجميل لواحدة من أمهات المؤمنين ، بل هى أولى أمهات المؤمنين ، السيدة خديجة -رضى الله عنها- .

❁ الأمين :

٣-أ - "محمد ﷺ هو رجل الحق والأمانة والصدق . كان صادقًا فيما يفعل، وكان صادقًا فيما يقول ، وكان صادقًا فيما يعتقد . وكان أتباعه يلاحظون دائما أن لكلامه قيمة ومعنى ومغزى . وكان رجلا متحفظًا فيما يقول ، وكان يصمت عندما لا يكون هنالك ما يستحق الكلام ، ولكنه كان ألمعيا ، موفقا في تناول موضوع الكلام عندما يلزم الكلام ، وكان حكيما فيما يقو له وكان مخلصًا كل الإخلاص ، وعندما كان يتحدث بالفعل كان يلقي النور على المسألة التي يتحدث عنها . وهذا هو نوع الكلام الذي يستحق الكلام !" (كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص٦٩)

ب – " ولقد كان من الطبيعي أن يثير محمد ﷺ حفيظة وغضب وحنق أفراد قبيلته ، قبيلة قريش ، حُرَّاسِ الكعبة وسدنة الأصنام ، وانضم إليه رجل من ذوي الثراء والنفوذ أو رجلان .

لقد انتشرت دعوته إلى الدين الإسلامي ببطء ، ولكن دعوته كانت تنتشر ، وكان من الطبيعي أن يثير انتشار دعوته حفيظة وغضب وحنق كثير من أبناء قبيلته ." (كتاب: الأبطال وعبادة البطولة – ص٧٧) .

جـ – " لم يكن محمد ﷺ مرائيا منافقًا . لقد كان ﷺ يصارح قومه دائمًا بالحقائق ، ولو كانت الحقائق بالغة المرارة أو الصعوبة لو تطلب الأمر ذلك . إنه لم يكن يقلل من شأن الأمور غير الهينة ! ولقد كانت "غزوة تبوك"من الغزوات التي حظيت بكثير من اهتمامه [١](لأنها كانت ضد جيوش الروم في جنوب فلسطين) . لقد رفض كثير من أتباعه أن يشتركوا معه في السير إلى تلك المعركة . وتعللوا في تقاعدهم عن السير معه بشدة حرارة الجو في ذلك الصيف ، وتعللوا بالحاجة إلى جني محصول حدائقهم ، وتعللوا بغير ذلك من المعاذير . ولم ينس لهم النبي ﷺ ذلك ، وقال لهم : حصادكم ؟ إنه لا يستغرق يوما . وماذا سيبقى لكم من حصاد يوم القيامة ؟ وتقولون إن الجو شديد الحرارة ؟ إنه كان شديد الحرارة ، ولكن نار جهنم ستكون أشد حرارة ! ويقول المنافقون: ربما تهب العواصف والأعاصير ، فيقول لهم : "لن يطول بقاؤكم ". (كتاب الأبطال وعبادة البطولة– ص٩٥–٩٦) .

(١) كانت غزوة تبوك في رجب سنة ٩ هـ (أكتوبر سنة ٦٣٠م) ، وسميت غزوة العسرة لشدة الحر وعموم القحط. تخلف عن السير معه ﷺ كثير من المنافقين ، ولكن النبي ﷺ وصل إلى تبوك ودخلها دون قتال وكان معه ٣٠,٠٠٠ مقاتل و ١٠,٠٠٠ من الخيل. وأقام النبي ﷺ في تبوك عشرين ليلة يصلي بها ركعتين ، وفرض الجزية على أهلها. (المترجم)

ولنتذكر أن توماس كارلايل كان قد قال مثل هذا الكلام ، وقال كلمات أكثر من ذلك لجمهور من المستمعين المسيحيين الذين اندهشوا مما كان يقوله لهم عن نبي الإسلام محمد ﷺ ، وعن دين الإسلام منذ أكثر من مائة وخمسين سنة . ولم يذكر لنا التاريخ شيئا عن المناقشات الحامية الوطيس ، والمناظرات التي كان من الطبيعي أن تكون محاضرته تلك قد تسببت فيها . ولقد أوفى توماس كارلايل بالعهد الذي عاهد نفسه عليه عندما قال : "أنا أعتزم أن أقول كل ما يمكن لي أن أقوله بحق وبصدق عن مزاياه ". واستمر كارلايل في حديثه لكي يدفع وينفي عن محمد ﷺ كل الاتهامات الزائفة ، وكل افتراء ، وكل الأكاذيب التي أذاعها الأعداء الألداء الذين ناصبوا محمدًا ﷺ دون وجه حق ألد الخصام والعداء .

❁❁❁❁❁

❁ تهمة الزّيف :

٤-أ - يقول[٣] توماس كارلايل:

"هـل قام رَجُلٌ مُزَيَّف بتأسيس دين زائف غير صادر عن الله سبحانه وتعالى ؟ ما هـذا الزيف في الاتهام ! الرجل المزيف لا يستطيع أن يبني بيتًا مـن الطـوب والحجارة ! ولو لم يكن البنّاءُ يعرف ويتبع بكل دقة وصرامة كـل مـا يـلزم معرفـته واتـباعه مـن شئون الخرسانة المسلحة والصلصال المحـروق ، وحديـد التسليح ، وكل الطرق السليمة للبناء وهندسة المعمار ، فهـو لـن يسـتطيع أن يبني بيتًا ، بل سيصنع كومة من الزبالة ، ولن يظل بقـاء هـذه الكومـة مـن الـزبالة لمـدة اثنى عشـر قرنًا من الزمان ، ولكى يـأوي إليها [٤]مائة وثمانون مليون مسلم . إن مثل هذا البناء الذي قام دون مـراعاة الأسـس الصـحيحة للبناء سيتهاوى وينهار على الفور . الغش لا يدوم إخفاؤه ، والكذب سرعان ما يظهر بهتانه .

إن ذلـك يشـبه إلى حـد كـبير الورقة المالية الزائفة . يتداولها المزيفون والمخدوعـون بـين أيديهـم غير الحاذقة ، ولكن أناسا آخرين لديهم الحذق الذي يمكنهم من اكتشاف زيفها . تشتعل الحرائق عندما يوجد في الطبيعة مـا يحـتم اشـتعال الحرائق . والثورة الفرنسية وما شابهها من الثورات قد أثبـتت بوضوح صحـة الحقيقة القائلة بأن الأوراق الزائفـة يستحيل على الـدوام إخفاء تزييفها ".

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص ٥٨) .

---

٣) كان ذلك إبان حياة توماس كارلايل ، ولقد مضى على ظهور الإسلام الآن أكثر من اربعة عشر قرنًا من الزمان . (المترجم)

(٤) أصبح عدد المسلمين لا يقل عن ألف مليون مسلم الآن . ولا يعقل أن يعتنق ألف مليون مسلم دينًا زائفًا .

ب - "وتتصادم وتتناقض مع نظرية الاتهام بالدجل والشعوذة والاحتيال على عقول العرب المتخلفين السذج حقيقة أنه ﷺ قد عاش طوال حياته الفريدة المثال حياة هادئة وادعة كل الهدوء والوداعة، حتى آخر عمره إذ توفاه الله وفاة طبيعية، وانتقل بكل هدوء ووداعة وصفاء ونقاء إلى الرفيق الأعلى. ولقد كان ﷺ في الأربعين من عمره، قبل أن يتكلم بكلمة واحدة عن رسالة السماء إليه ...... وكان "كل طموحه" فيما يبدو ينحصر في أن يعيش حياة فاضلة، وكانت "سمعته بين قومه" تنحصر في أنه كان يحظى بالسمعة الطيبة، بين كل الناس الذين عاشوا بالقرب منه وعرفوه عن كثب ...." (كتاب الأبطال وعبادة البطولة ص٧٠).

جـ - هل هو الطموح ؟ وماذا كانت تعني شبه الجزيرة العربية كلها من أدناها إلى أقصاها بالنسبة إلى هذا الرجل ؟ إنها كمٌّ مُهْمَلٌ لا يكاد يُذْكر بالنسبة إلى تاج الإمبراطور الروماني هرقل، أو بالنسبة إلى عرش كسرى الفارسي ؟ بل ما هي قيمة كل تيجان الملوك على وجه الأرض بالنسبة إلى مجالي عظمة هذا الرجل ؟ وماذا كانت كل تيجان الملوك تجديه وهو يشيد مجد عظمته ؟ عظمة هذا الرجل كانت مستمدة من السماء، وكانت هذه التيجان تتلألأ فوق جحيم الأرض. وأين ستكون هذه التيجان وأين سيكون من يضعونها فوق رءوسهم بعد قليل من السنوات ؟ وما هي قيمة أن يكون ملكًا في مدينة مكة أو أن يكون الإنسان ملكًا فوق عرش شبه الجزيرة العربية كلها يمسك بيده صولجانًا لا يزيد على أن يكون قطعة من الخشب ؟ هل يتمثل في ذلك خلاص النفوس من الخطايا والآثام البشرية ؟ إنني أعتقد بكل حسم أن مثل

ذلـك الصولجان لا يحقق أي خلاص للنفوس من الخطايا والآثام البشرية . إنـنا سـنترك وراءنـا الصولجان وكل ما يمثله الصولجان من مظاهر السلطة الدنيوية وزخارفها وراءنا ، وقد تجردنا بعد الوفاة منها كلها دفعة واحدة .

إن اتهـام محمـد ﷺ باعتبار أنه كان رجلا يحاول تحقيق طموح شخصي دنيـوي عـلى أسـاس مـن رغـبة جامحـة في الحصـول عـلى سلطات الملك الدنيوي ، إنما هو اتهام عـارٍ تماما من الصحة ، لدرجة أنه لا يحتاج إلى مجرد البحث والمناقشة بشأنه من جانبنا ". (كتاب الأبطال وعبادة البطولة-ص ٧٢-٧٣) .

❁ تهمـة اقتراف الخطايا والآثام:

٥- خطايـا وآثام ؟ هل اقترف محمـد ﷺ من الخطايا والآثام ما يحط مـن شـأنه ، ويجعلـه غـير جديـر بعظمة وعصمة الأنبياء والمرسلين ؟ أمن الضـروري أن أقـول إن أعظم الخطايا والآثام إنما يتمثل في عـدم الدراية ، وعـدم القدرة على تحديد معنى الخطيئة ، أو معنى الآثم ، والعمل الأثيم . وأنـا أعـتقد أن أولـئك الذيـن أتـيحت لهـم فرصة قراءة العهد القديم ، والعهـد الجديد من الإنجيل ، كان الأحرى بهم أن يعرفوا من قراءة كتابهم المقدس: مَنْ مِنَ الأنبياء قد ارتكب الخطايا والآثام في حق الرب ؟ إن داود، النبي الملك العبراني-وفْقًا لما يرويه عنه الكتاب المقدس [٥] كان قد اقترف ما يكفي من الخطايا والآثام ليكون أكبر الخطاة الآثمين ! ولم يرتكب محمـد

---

(٥) يلاحـظ المؤلف في ملاحظة بالهامش السفلي ص٢٧ أن هذا هو التصور اليهودي والمسيحي لأنبياء الله إذ يتهمونهم بالزنا وبالقـتل والتآمر من أجل القتل وفقا لما يرويه عنهم الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى . أما القرآن الكريم فهو يؤكد عصـمة الأنبياء جميعا عليهم السلام ويربأ بهم ان يكون أي نبي أو رسول منهم قد ارتكب أي خطيئة . وشتان بين موقف وموقف . (المترجم)

ﷺ أي خطيئة أو أي عمل أثيم ، ويحاول منتقدوه "بغير حق" أن يسخروا منه قائلين : هل هذا هو نبي الإسلام ؟ لقد كان يتبع شهواته الجنسية إشباعا لفحولته الجنسية ولتمكُّن الشهوة الجنسية منه ! وهذه سخرية لا مسوغ لها أبدًا من وجهة نظري . إنها تهمة ضحلة لا أساس لها من الصحة . ما الخطايا وما هى تفاصيل الحياة في المسلك الظاهر للإنسان عندما نفحص محتواها في حقيقة أمرها ، وعندما يكون الندم والرجوع عن الخطأ قد أزالا أي آثار للخطأ ، بفضل التوبة الصادقة ، فينطوى الخطأ في ثنايا الصفح والعفو والنسيان ؟ إن الخطيئة لا تلتصق بالإنسان الذي يمشي بخطواته فوق الأرض ، إذا كان قد عقد العزم أن يمشي في طريقه المستقيم . أليس الصفح والغفران من شأن الله ؟! إن أكبر الخطايا فيما أعتقد هو الغرور الناجم عن الاعتقاد الخاطئ بأن الإنسان لا يخطئ كما لو كان معصوما تماما من الخطأ . إن هذا الاعتقاد بالعصمة من الخطأ لا يتحقق إلا بالوفاة ، والقلب الذي يخلو من الإخلاص والتواضع والاعتراف بالحقائق إنما هو قلب ميت . إن القلب عندما يكون ميتا يكون نقيا نقاء حبات الرمال الجافة الميتة". (كتاب الأبطال وعبادة البطولة- ص ٦١) .

❁ تهمة السيف :

تلك هى أكبر الجرائم ! إن أعظم خطايا محمد ﷺ في عيون الغرب المسيحي هى أنه لم يرتض أن يُذْبح أو أن "يُصْلَبَ" على يد أعدائه . لقد دافع بكل شجاعة ، وبكل مهارة ، وبكل اقتدار ، دافع عن نفسه ، وعن أسرته ، وعن أتباعه ، وتغلب في النهاية على كل أعدائه ، وقهر عدوانهم.

إن نجاح محمد ﷺ في ذلك هو الغصة في حلق خصومه في الغرب الذين حاولوا دون جدوى ، أن يجعلوا مزاياه الحقيقية عيوبا مشينة . إنه في نظرهم لم يكن يؤمن بقداسة التضحية بنفسه ، من أجل أن يُغْتَفَرَ للبشر خطاياهم ، ومن أجل أن يتحقق للخطاة من البشر أسهل خلاص مما يستحقونه من عقاب جزاءً وفاقا لخطاياهم وذنوبهم . لقد كان ﷺ يفكر ويتصرف على نحو طبيعي معقول ومقبول .

ويقول "جيبون" في كتابه عن اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية : "من الطبيعي ، ونزولا على مقتضيات قانون الطبيعة التي لا جدال فيها ، أن لكل شخص الحق في أن يدافع عن نفسه ، وأن يدافع عن ممتلكاته ، وأن تصل مقتضيات دفاعه عن نفسه ، إلى كل الآفاق المعقولة ، التي توفر له الأمن والقدرة على رد(٦) الأعداء عن موطنه ".

إن نضال محمد ﷺ وانتصاره على جيوش أعدائه الكافرين الأشرار قد جعلت محرري دائرة المعارف البريطانية يعلنون أن محمدًا ﷺ هو "أعظم الشخصيات الدينية نجاحًا في التاريخ ".

كيف يحقُّ إذَنْ لخصوم الإسلام أن يعتبروا أن انتصارات محمد ﷺ لم يكن لها أي هدف ، أو أي قيمة سوى أنها قد أتاحت له أن ينشر دينه الإسلامي اعتمادًا على السيف ، وغلبه الجيوش والرماح ، وغير ذلك من أنواع السلاح ؟ هل فرض محمد ﷺ الإسلام على رقاب الناس بأن قطع محمد ﷺ رقاب الناس ؟

---

(٦) ذلك هو ما يمكن أن نطلق عليه تسمية. "الوحدة الاستراتيجية لأرض الوطن" بمعنى امتداد أرض الوطن حتى تصل إلى حدود طبيعية يمكن الدفاع عنها بسهولة. ولم يكن من المعقول مثلا أن يكتفي المسلمون بالبقاء في شبه الجزيرة العربية دون أن يسيطروا على كل منطقة الشرق الأوسط. (المترجم)

٦- أ- يقول دولاسي أوليري ما نصه كما يلي : "إن التاريخ يؤكد ، بما لا يدع مجالا لأي شك ، أن خرافة الاجتياح البربري لمساحات شاسعة من الأرض ، وإجبار الناس على الدخول في الإسلام بقوة السلاح ، فوق رقاب الشعوب المغلوبة على أمرها ، إنما هى خرافة خيالية مضحكة ، عارية تماما من الصحة ، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة على نحو نادر المثال في دنيا التاريخ وفي عالم المؤرخين." - دولاسي أوليري - كتاب الإسلام في مفترق الطرق - لندن ١٩٢٣ص٨) .

وأنت - أيها القارئ الكريم- لست بحاجة إلى أن تكون مؤرخًا مثل "أوليري" لكي تعرف أن المسلمين كانوا قد حكموا إسبانيا لمدة ٧٣٦ عاما. ولقد كانت أطول مدة حكم فيها المسيحيون المسلمين هى ٥٠٠ سنة في موزمبيق ، وهى بلد تم للمسيحيين انتزاعه من حاكم عربي مسلم هو "موسى بن بايق" وهو اسم عربي لم يستطيعوا أن ينطقوه النطق الصحيح . ولا يزال المسلمون يمثلون ٦٠٪ من سكان موزمبيق على الرغم من مرور خمسة قرون من حكم المسيحيين لذلك البلد .

وعلى كل حال ، بعد قرابة ثمانية قرون تم إقصاء وإبعاد المسلمين عن إسبانيا بحيث لم يبق فيها مسلم واحد يقيم الأذان معلنا وجوب صلاة من الصلوات الخمس المفروضة على المسلمين في اليوم الواحد . ولو كان المسلمون قد استخدموا القوة عسكريا واقتصاديا في إسبانيا ، لما بقى فوق أرض إسبانيا أي مسيحي ليقوم بطرد المسلمين خارج أسبانيا . ربما يجوز أن يصف الإنسان -لو شاء- المسلمين بأنهم قد استفادوا من خبرات وثروات البلاد ، التي كانوا قد فتحوها ، ولكن يستحيل أن يتهمهم أحد

بأنهم قد استخدموا السيف ، لكي يحوّلوا الأسبانيين إلى مسلمين ، يعتنقون الدين الإسلامي ، خوفا من سيوف المسلمين .

واليوم لا يزال الإسلام ينتشر في كل أنحاء العالم دون أن يكون لدى المسلمين سيوف !!

ولقد كان المسلمون أيضا هم سادة الهند لمدة ألف عام ، ولكن حدث عندما نالت شبه القارة الهندية استقلالها في عام ١٩٤٧ ، أن حصل الهندوس على ثلاثة أرباع مساحة الهند ، وحصل المسلمون على ربع مساحة الهند فقط .

لماذا حدث ذلك ؟ لقد حدث ذلك لأن المسلمين خلال ألف عام من سيطرتهم على أراضي الهند لم يجبروا الهندوس على اعتناق الدين الإسلامي اعتمادا على حد السيف . ولم يفعل المسلمون هذه الفعلة على الإطلاق في إسبانيا ولا في الهند ، ولم يكن السبب في ذلك هو مجرد التحلي بفضائل الأخلاق فحسب، ولكن كان ذلك نزولا على مقتضيات أمر إلهي موجود في القرآن الكريم إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(سورة البقرة : من الآية ٢٥٦) .

ولقد أدرك المسلمون المنتصرون ، وأيقنوا بموجب هذا الأمر الإلهي أن[٧] "الإكراه" لم يكن يتسق مع الدين الصحيح للأسباب الآتية :

---

(٧) لا ريب على الإطلاق في أن الله كان يستطيع لو شاء أن يكون كل البشر مؤمنين بالله لا يكفر منهم أحد . ولكن حقائق الإيمان تصبح كلها لو لم يكن وجود الكفر ممكنا بين البشر . ولقد قضت مشيئة الله أن يعبده الناس طواعية واختيارا وليس قهرا وإجبارا. (المترجم)

(أ) – يعتمد الدين الصحيح على الإيمان والإرادة ، وسيفقد الإيمان وستفقد الإرادة كل معنى ، لو تم فرض الدين على الناس بالقوة الغاشمة . القوة الغاشمة يجوز لها أن تهزم وتقهر ، ولكنها يستحيل عليها أن تكون كافية ليتحول إنسان بحق من دين إلى دين .

(ب) – الحقُّ والباطلُ ، والرُّشْد والغَيُّ ، والهُدَى والضلالُ قد تم توضيح كل منها بفضل الله ورحمته ، لدرجة أنه لم يبق أي ريب ، أو أي شك في عقل أي إنسان يخلص النية في التوجه الصحيح نحو حقائق أسس الإيمان .

(جـ)– رعاية الله وعنايته مستمرة ، متصلة بالبشر ، وقد اقتضت مشيئته أن يرشدنا في غياهب الظلام لنحصل على أوضح أنوار الهدى والإيمان ، دون حاجة إلى قهر أو إجبار .

وفيما عدا بعض الممارسات القليلة الخاطئة هنا أو هناك ، نجد أن المسلمين عموما قد امتثلوا للأمر الإلهي في كل الأراضي التي خضعت لفتوحات المسلمين .

ولكن ، ماذا يمكن أن يقول الخصوم عن أقطار لم يضع فيها جندي مسلح مسلم قدميه على الإطلاق ؟ :

(أ)–إندونيسيا : الحقيقة هى أن أكثر من مائة مليون إندونيسي إنما هم من المسلمين ، وبالرغم من ذلك لم تطأ أقدام أي جيش للمسلمين الأرض في أكثر من ألفي جزيرة في إندونيسيا .

(ب)– ماليزيا : الغالبية العظمى من سكان ماليزيا من المسلمين ، ومع ذلك لم تطأ قدم جندي مسلم واحد أراضي ماليزيا .

(جـ)- إفريقيا : أغلبية الناس الذين يعيشون فوق أراضي السواحل الشرقية في إفريقيا حتى موزمبيق إنما هم من المسلمين ، وفوق أراضي السواحل الغربية في إفريقيا أيضا نجد أن أغلبية السكان من المسلمين، ولكن التاريخ لم يسجل أي غزوات للمسلمين في هذه الأقطار الإفريقية ، جاءت إليها من أي مكان . ما السيف ؟ أين كان السيف ؟ لقد قام التاجر المسلم بإنجاز كل المهمة . إن سلوكه الطيب والتزامه الأخلاق الحميدة في المعاملة مع الناس قد حقق معجزة انتشار الإسلام بين الناس في تلك الأقطار .

ورغم كل هذا قال لي ضيفي المسيحي وهو يحاورني : "كل ما تقوله يبدو أنه من المستحيل نقضه ومعارضته يا سيد ديدات ، ولكننا نتحدث عن الإسلام في بدء بدايته ، ونتحدث عن الطريقة التي استطاع بها نبيكم محمد ﷺ أن يجعل الوثنيين يتحولون إلى الإيمان برسالته ، واعتناق دينه ، كيف فعلها إن لم يكن قد فعلها اعتمادا على السيف ؟

❁ واحد ضد الجميع ؟

وإزاء هذا التساؤل ، لا نستطيع أن نفعل ما هو أفضل من أن ندع توماس كارلايل نفسه يدافع عن بطله النبي المختار ، لدحض هذا الاتهام الزائف ، بأن الإسلام في أول عهده قد انتشر بين العرب اعتمادا على السيف . وفي هذا الصدد يقول توماس كارلايل :

٧- "إنه السيف فعلا : ولكن أين ؟ وفي أي جانب يوجد السيف ؟! إن كل رأي جديد ، في بدء بدايته يكون بطبيعة الحال منحصرا في أقلية ، إنما هي أقل الأقليات في عدد أفرادها ، إذ أن الرأي الجديد لا يقول به في

بـــدء الـبداية إلا شــخص واحد يكون الرأي الجديد موجودا في رأسه هو وحــده ، دون غـيره مــن الناس . وهنالك ، في رأس هذا الشخص الوحيد يولــد الـرأي الجديد ، ويصدق بصحته . يوجد رجل واحد في مواجهة كل الـرجال . وعندما يمسك هذا الرجل الواحد بالسيف ويحاول أن ينشر رأيه بقوة السيف بين الناس فهو لن يحصل من جراء امتشاق السيف على أي نفع يحقق هدفه . وأنت يجب أولا أن تشرع السيف ! وعموما سينشأ شيء عـندما يسـتطيع شـيء أن ينشأ . ونحن لا نجـد أن الدين المسيحي قد نبـذ السـيف عـلى مـدار تاريخـه عندما استطاع أتباع الدين المسيحي الحصول عـلى السـيف . ولم يـتمكن شـارلمان مـن تحويل الساكسونيين إلى اعتناق المسـيحية بمجـرد التبشير النظري القائم على أساس من الإقناع وحده ". (كتاب الأبطال وعبادة البطولة- ص ٨٠) .

فــي سِـنّ الأربعـين عـندما أعـلن محمــد ﷺ عـن رسالة السماء إلى الأرض ، لم يكــن هـنالك حـزب سياسـي ، ولم يكـن ذلـك في نطاق دولة مـلكية النظام ، ولم تكن هنالك أسرة حاكمة ، أو قبيلة مسيطرة تسانده في دعوتـه إلى الديـن الـذي أعـلن عـنه. وكـان قومه الذين ظهر بينهم وهم العـرب مـتورطين كـل الـتورط في عـبادة الأصنام ، ويسيطر على عقولهم الكهـان والمشـعوذون . ولم يكونـوا شـعبا سـهل الانقيـاد بـأي حـال من الأحوال إذ كانت السيطرة عليهم مستحيلة المنال . ولم تكن لحومهم طرية. وكانوا شعبا متقلب الأهواء ، مشتت المذاهب والآراء ، لا تنقطع الحروب والإغـارات الانـتقامية المضادة بين قبائله المتنافرة منقلبين تقلبا وحشيا بين مختـلف أنمـاط الولاء والتبعية كما وصفهم كارلايل . ورجل واحد ، لـه يد

ضاربة واحدة يستطيع أن يُوَحِّدَ مثل هذا الشعب القبائلي التنافر في نسيج واحد وأمة واحدة يحتاج إلى ما لا يقل عن معجزة .

ولقد حدثت بالفعل المعجزة . لقـد كان الله وحده هو القادر على أن يجعـل محمـدًا ﷺ منتصـرا نصـرا مبيـنًا على طول الخط رغم قلة الأعوان والأنصـار وكثرة الأعداء ، وضخامة الأخطار ، مصداقا لقول الله -سبحانه وتعالى- لسيدنا محمـد ﷺ في القرآن الكريم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

(سورة الشرح : ص ٤) .

❁❁❁❁❁

{الفصل الثالث}

أسرع الأديان نموًّا اليوم

❁ سيف العقل:

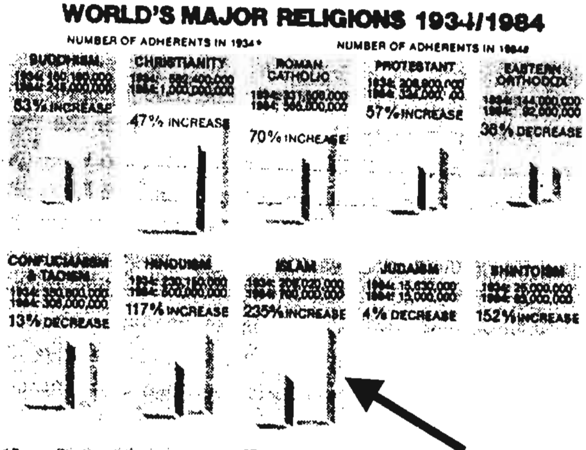
إن خصوم الإسلام ، والمشككين فيه ، والمبشرين بالدين المسيحي ، وأتباعهم في مختلف معسكراتهم في كل أنحاء العالم لن يكفوا أبدا عن الادعاء بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ! ولكنهم لن يخاطروا أبدا بأن يجيبوا عن سؤالنا ..... من الذي رشا كارلايل ؟ في عام ١٨٤٠ عندما دافع كارلايل عن محمد ﷺ . ودحض ذلك الادعاء الزائف بشأن السيف لم يكن هنالك أحد من المسلمين بالقرب منه لكي يرشُوَهُ . كان العالم الإسلامي كله آنذاك تحت احتلال الغرب المسيحي في حالة يرثى لها ، وكانت الأقطار الإسلامية كلها تحت حكم وسيطرة المسيحيين ، فيما عدا القليل منها مثل إيران وأفغانستان وتركيا التي كانت مستقلة استقلالا اسميا فقط ، رغم قوة تأثير نفوذ المسيحيين في هذه الأقطار أيضا . ولم تكن لدى أي قطر من الأقطار الإسلامية آنذاك ثروات لتغوى ، ولا بترو دولارات لترشو !

كان ذلك في الماضي منذ وقت طويل ، ولكن ماذا بشأن اليوم في عصرنا الحديث ؟ يتضح من الرسم البياني التالى أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارا ونموًّا في العالم . مجمل الزيادة في نطاق كل المذاهب والملل والنحل المسيحية تتراوح حول نسبة مئوية مقدارها ١٣٨٪ في مقابل زيادة مدهشة في النسبة المئوية لانتشار الإسلام في العالم بلغت ٢٣٥٪ في نفس المدة الزمنية التي تم قياس الزيادة في الانتشار خلالها ، وهى نصف قرن من

A CRUCIAL HALF CENTURY OF RELIGION

by Keith W. Stump

We highlight the most significant developments



*Source: The World Almanac and Book of Facts, 1935.
‡Source: The Reader's Digest Almanac and Yearbook, 1983.

يقـدم لنـا المؤلف الرسم البياني الذي نشرته مجلة "بلين ثروت" تحت عنوان : "نصف قرن حاسم في شئون الدين" - أديان العالم الكبرى في المـدة من ١٩٣٤ إلى ١٩٨٤ .

والرسم البياني يوضح مـدى الزيادة في انتشار الإسلام في العالم التي بلغت نسبتها المئوية ٢٣٥ ٪ (انظر مكان السهم) بينما بلغت نسبة الزيادة في انتشار المسيحية ١٣٨ ٪ .

الزمان . ومن الأمور التي ازداد التأكيد عليها ، أن الإسلام هو الدين الأكثر انتشارا في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي بريطانيا . ويقال: إن عدد المسلمين في بريطانيا أكثر من عدد المسيحيين الميذوديست فيها . ولك الحق في أن تسأل عن السيف ، والإجابة هى كما قالها توماس كارلايل: يوجد السيف فعلا ، ولكنه سيف الحق والعدل والمعقولية . إنه سيف يتمثل في نبوءة ، وحقيقة ، وآية قرآنية أخرى .

إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾

(سورة الفتح : ٢٨)

لقد تحدد مصير الإسلام باعتبار أنه دين الله الصحيح بأوضح الكلمات، كلمات الله سبحانه وتعالى . مصير الإسلام هو أن يسود كل الأديان في العالم متفوقا على كل دين آخر غير دين الإسلام كما يدل على ذلك بكل وضوح قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (سورة الفتح : ٢٨) .

وكلمة "دين" في اللغة العربية تعني في أصلها اللغوي "طريقة الحياة" وتعبير : "ليظهره على الدين كله" تعني أن دين الإسلام سيسود وسيعلو كل الأديان سواء في ذلك الهندوسية ، أو البوذية ، أو المنسيحية ، أو اليهودية ، أو الشيوعية (باعتبار أنها تدعى أنها نظام في الحياة ، وقد أعلنت الشيوعية إفلاسها التام ، وقصورها عن أن تكون نظاما سليما لحياة الناس) . هذا هو مصير دين الله كما حدد الله مصير دين الله .

ويتكرر نفس المعنى في آية قرآنية أخرى في سورة الصف إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

(سورة الصف : ٩).

❁ انتصار الإسلام:

سيسود الإسلام ويزداد انتشاره في العالم . هذا هو وَعْدُ الله سبحانه وتعالى ، ولن يخلف الله وَعْدَه . ولكن ، كيف سيسود الإسلام ، ويزداد انتشارا في العالم ؟

هل سيتحقق ذلك بالسيف ؟ لا ، لن ينتشر الإسلام في العالم بالسيف حتى لو كنا نملك مدافع الليزر . هل نحن نستطيع أن نستخدم مثل هذه المدافع لنشر الإسلام في العالم ؟ إن القرآن الكريم يمنعنا ، ويحرم علينا أن نستخدم القوة كوسيلة لفرض الإسلام وإجبار الناس على التحوُّل إليه والدخول فيه ، وبالرغم من ذلك نجد أن الآية القرآنية الكريمة ، تتنبأ بأن الإسلام سيكون هو الدين الغالب بين الأديان الأخرى . إن الانتصارات التي تحرزها عقائد الإسلام قد بدأت مؤشرات ظهورها بالفعل ، وهى تحقق الغلبة والفوز والهيمنة بالمقارنة مع كل الأيديولوجيات ، والعقائد الدينية للأديان الأخرى في كل أنحاء العالم ، وإن لم يكن ذلك في إطار الدين الإسلامي فهى تدخل في إطار الإصلاح ، وحل مشكلات العالم . وعقائد الإسلام ومبادئه يتم الأخذ بها والتسليم بصوابها في مختلف النظم الدينية . وكثير من الحقائق التي كانت إسلامية الطابع ولم تكن معروفة من قبل ، أو كانت تواجه بمعارضة قوية من قبل بكل شدة وبكل صراحة لدى أتباع الأديان الأخرى ، قد أصبحت الآن جزءا من منظومة الحقائق العلمية المعترف بها علميا من العلماء الذين يعتنقون مختلف الأديان .

- الأخُوَّة بين كل البشر .
- إلغاء نظام القديسين والمنبوذين .

- حق المرأة في الميراث .
- احترام المعابد ، ودور العبادة بالنسبة إلى كل الأديان .
- تحريم شرب الخمر .
- الفهم الصحيح لوحدانية الله سبحانه وتعالى دون شبهات الإشراك به .

وقبل أن نطوى الكلام عن هذه الاعتبارات المهمة نَوَدُّ أن نضيف كلمة وجيزة عن الاعتبار الأخير المتعلق بوجوب وحدانية الله دون إشراك . سل أي مؤمن بالله ، أو أي مشرك بالله ، أو أي مؤمن بوحدة الوجود ، أو أي مؤمن بالتثليث ، سَلْهُ : كم عدد الآلهة التي يؤمن بها ؟ سيرتجف بشدة لو قال أي عدد للآلهة غير الإله الواحد ! وهذا هو تأثير التوحيد النقي الحقيقي في الإسلام .

وفي ذلك يقول المؤرخ جيبون في كتابه : "اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" ما نصه بالحرف الواحد كما يلي : "عقيدة محمد ﷺ عقيدة لا غموض فيها ، والقرآن الكريم شهادة ناصعة الصدق في الشهادة بوحدانية الله" .

❁ رأي غير المسلمين من بلاد الشرق:

معظم المدافعين عن محمد ﷺ ضد الرأي القائل بأنه قد نشر دينه بحد السيف كانوا من الغربيين . ولنستمع الآن لما يقوله بعض غير المسلمين من مفكري الشرق في هذا الصدد .

٨ – أ- "كلما درست أكثر اكتشفت أن قوة الإسلام لا تكمن في السيف." (المهاتما غاندي – مؤسس الهند الحديثة في كتابه : "شباب الهند" .

ب – إنهم ، منتقدو محمد ﷺ ، يرون النار بدلا من أن يشاهدوا النور ، ويستسيغون القبح بدلا من الاستمتاع بالجمال . إنهم يخرفون ويعتبرون كل فضيلة وميزة وكأنها رذيلة مستهجنة . إن ذلك إن دل على شيء فهو يدل على أنهم محرومون من نعمة التمييز وحسن الإدراك .... إن منتقدي محمد ﷺ إنما هم جماعة من العميان . إنهم لا يدركون أن السيف الوحيد الذي شهره وشرعه محمد ﷺ إنما كان هو "سيف الرحمة" والتعاطف والصداقة والتسامح – إنه السيف الذي يهزم الأعداء ، وينظف قلوبهم من الغضب والحقد والحسد والكراهية . لقد كان سيفه أمضى من السيف المصنوع من الحديد الصلب ". (بانديت جياناندرا ديف تشارما شاستري أثناء لقاء تم عقده في جورا كفور بالهند سنة ١٩٢٨).

جـ- "لقد فَضَّل محمد ﷺ الهجرة على قتال أبناء بلده . ولكن عندما تجاوز العدوان كل حدود إمكانات التسامح امتشق سيفه دفاعا عن نفسه . وأولئك الذين يعتقدون أن أي دين يمكن أن يتم نشره بالسيف ، إنهم هم جماعة من الحمقى الذين لا يعرفون الطرق السليمة لنشر الدين ، ولا يعرفون فيم تستخدم السيوف ، ولا يعرفون شيئا من شئون الدنيا بوجه عام . إنهم مزهوون بهذا الاعتقاد الخاطئ ؛ لأنهم بعيدون عن الحق بمسافات كبيرة شاسعة ." (صحفي من طائفة السيخ في صحيفة ناوان هندوستان الصادرة في مدينة دلهي بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٤٧) .

ولقد كان روديار كيبلينج هو الذي قال: "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا." ولقد كان كيبلينج على خطأ في ذلك! في مجال الدفاع عن محمد ﷺ ضد الاتهام بأنه قد نشر الإسلام بحد السيف التقى بالفعل الشرق والغرب.

❁ ثلاثة مقاييس أخرى:

بعد أربعة عشر عاما من إلقاء توماس كارلايل لمحاضرته دفاعا عن بطله، النبي محمد ﷺ، كتب شاعر فرنسي هو لامارتين كتابا بعنوان: "تاريخ الأتراك". وحيث إن الأتراك مسلمون، فلقد تعرض لامارتين بالدراسة لبعض جوانب الإسلام كما تناول بالدراسة بعض الجوانب من شخصيه مؤسس الإسلام، محمد ﷺ ومثلما وضع جولز ماسرمان في أيامنا هذه ثلاثة مقاييس موضوعية لقياس عظمة القيادة، فلقد ابتكر فكر لامارتين منذ أكثر من قرن من الزمان ثلاثة معايير موضوعية أخرى، لقياس عظمة القيادة والقادة. ومن الضروري أن نشهد لمفكري الغرب بالبراعة في وضع مثل هذه المقاييس، أو المعايير الموضوعية لإصدار الأحكام السليمة وفي هذا الصدد يقول لامارتين:

٩- لو كانت عظمة الهدف أو الغاية، وكانت بساطة وضآلة تكاليف الوسيلة، بالإضافة إلى تحقيق النتائج الباهرة بنجاح وسلاسة هي المعايير الثلاثة للعبقرية البشرية فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أي رجل عظيم من عظماء التاريخ الحديث بنبي الإسلام محمد ﷺ؟!

(وينهي لامارتين مقالته الطويلة الرائعة في هذا الصدد بقوله): "فيلسوف، خطيب، رسول من رسل الله، مُشَرِّعٌ، محارب، منتصر الفكر، مساند للعقائد المعقولة، هادم للأصنام بمختلف صورها، مؤسس عشرين

إمبراطورية دنيوية أرضية، وإمبراطورية روحية واحدة، ذلكم هو محمد ﷺ وبكل المقاييس والمعايير التي يمكن أن تقاس بها عظمة البشر يجوز لنا أن نسأل سؤالا له كل الوجاهة، وكل الدواعي: هل يوجد أي رجل أعظم من محمد ﷺ؟ (لامارتين في كتابه: "تاريخ الأتراك - باريس ١٨٥٤).

وإجابة سؤال لامارتين: "هل يوجد أي رجل أعظم من محمد ﷺ متضمنة في ثنايا السؤال نفسه. إنه بطريقة أخرى يقول:"لا يوجد رجل أعظم من محمد ﷺ"

أو هو بطريقة أخرى يقول: "محمد ﷺ هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض".

ونجد هذا القول مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى لخاتم الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (سورة الشرح: ٤). وبكل تأكيد لقد رفع الله سبحانه وتعالى له ذكره.

وقبل أن ننفي عن لامارتين أي انحياز في الرأي، أو اتهام بالرشوة سنقوم بفحص مقاييسه الثلاثة، وسنرى ما إذا كانت صحيحة القياس بالنسبة لعظمة نبي الإسلام محمد ﷺ.

١- عظمة الهدف أو الغاية:

تاريخ العالم، لو درست تاريخ العالم حتى الآن، سيخبرك أن الوقت الذي أمر فيه الله سبحانه وتعالى خاتم أنبيائه ورسله، محمد ﷺ، أن يعلن للناس رسالته كان من أشد الأوقات ظلاما!

لقد كانت الحاجة ماسة إلى أحد أمرين: إما إرسال نبي مرسل، خاتم للأنبياء والرسل إلى كل ركن وكل أمة من أركان وأمم العالم، أو إرسال

نبي مرسل خاتم للأنبياء والرسل إلى كل البشر في كل أمم ، وأركان العالم لكي يخلص ويحرر كل البشر من الزيف ، والخرافة ، والأنانية ، وتعدد الآلهة ، والضلال ، وظلم وقهر الإنسان لأخيه الإنسان . وتكون رسالة خاتم أنبياء ورسل الله موجهة من الله إلى الإنسانية كلها . واقتضت مشيئة الله وحكمته أن تختار لهذه الرسالة الخاتمة النبي خاتم الأنبياء المرسلين ﷺ من أعماق أكثر مناطق الأرض تخلفا قبل بعثه إلى البشر كافة من شبه الجزيرة العربية . وهذه الحقيقة ، أن رسالة نبي الإسلام ﷺ كانت رسالته لكل البشر ، قد سجلها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(سورة الأنبياء : ١٠٧).

"لا مجال هنا الآن لتمييز جنس على جنس آخر أو تفضيل أمة على أمة أخرى. لا مجال هنا الآن "للشعب المختار" أو "بذرة إبراهيم" أو "نسل داود" أو "هندو آريا فارتا" أو "اليهود" أو "الجوييم" أو "العرب أو العجم (الفُرْسِ) ، الأتراك أو الطاجيك ، الأوربيين أو الآسيويين ، البيض أو الملونين ، الآريين أو الساميين ، المغول أو الأفارقة ، الأمريكي أو الأسترالي أو البولندي . إنه لكل الناس ولكل المخلوقات التي حباها الله القدرة على تحمل المسئولية الروحية ، إنه يقدم المبادئ السليمة لكل العالم ". هذا هو ما يقوله عبد الله يوسف على ، في ترجمته لمعاني القرآن الكريم وتعليقاته .

❁ المسيح عليه السلام ومسألة التمييز العنصري:

إن النبي السابق مباشرة لنبي الإسلام محمد ﷺ كان قد نصح حوارييه قائلا لهم :"لا تعطوا القدس للكلاب (والمقصود بالكلاب هم الناس غير

اليهـود) ولا تطـرحوا درركـم قُـدَّام الخـنازير (والمقصود بالخنازير هنا هم الـناس غـير اليهـود) لئلا تدوسها بأرجلها ، وتلتفت فتمزقكم ". (إنجيل مـتى ٧ :٦). ولا يهـتم كـتاب الإنجيـل بتسجيل أن المسيح ﷺ كان يعيش وفقا للمبادئ التي كان يعلنها . وطوال حياته ، ولم يتجه المسيح بدعوته إلى شـخص واحـد مـن غـير اليهـود . ولقـد صَدَّ المسيح ﷺ حقا امرأة غير يهودية رافضا أن يمنحها أي شيء من البركة التي كانت تلتمسها عنده من أجـل شفاء ابنتها من المرض (وكانت تلك المرأة يونانية) كما وَرَدَ ذِكْرُه في إنجيـل مـرقس(٧:٢٦) . وبعدئـذ وأثناء الاحتفال بعيد الفصح في أورشليم عـندما كـان المسيح –عـليه السـلام– مجتمعا مع تلاميذه للاحتفال بهذه المناسـبة ، سـعى بعـض اليونـانيين للاسـتماع إليـه طلبا لمعرفة توجيهاته الـروحية ، ولكـن المسيح –عليه السلام– عزف عن الترحيب بوجودهم كمـا يحكي عن ذلك إنجيل يوحنا بقوله : "وكان أناس يونانيون من الذين صـعدوا لـيمجدوا في العيد. فتقدم هؤلاء إلى فيلبس الذي من بيت صيدا الجـليل وسـألوه قائـلين : يـا سيد نريد أن نرى يسوع . فأتى فيلبس وقال لأندراوس ثم فيلبس وأندراوس ليسوع ". (يوحنا ١٢: ٢٠-٢٢).

❁ تمجيـد الـذات :

ولا تـدل الـرواية بعـد ذلك على أي ترحيب ، أو رفض كما لو كان المسيح ﷺ لم يعبأ برغـبة أولـئك الذيـن كـانوا قـد حضـروا مـن أجل الاسـتماع إلى مواعظـه ، كمـا سـجل ذلـك (إنجيل متى٥:٢٧) بينما يمضي إنجيـل يوحـنا ليؤكـد إحسـاس المسيح بالفخر والإعجاب بنفسه ويؤكـد ذلـك قـول إنجيـل يوحنا في هذا الموضع : " وأما يسوع فأجابهما قائلا: قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان ". (يوحنا ١٢ : ٢٣).

❁ أرقى مقاييس السمو الأخلاقي:

لم يضــع محمــد ﷺ مثل هذه الخطوط الفاصلة التي تباعـد بينه وبين الناس من مختلف الأجناس، والألوان، والأديان، والطبقات الاجتماعية. ولنتذكـر مَعًا كيف أن الله العلى العليم قد وجه النبي الكريم ﷺ إلى أرقى آداب السـلوك في الـتعامل والتواصـل مـع الآخـرين. إن جـولان فكـرة الاسـتياء مـن مقاطعـة الرجل الأعمى لحديثه مع علية القوم في خاطره قد عاتـبه الله بشـأنها ولم يدعهـا تمـر دون تمحيـص لها (انظر ص١٢ في سبب نـزول سـورة عـبس). إن الله سـبحانه وتعـالى قد وضع لسيدنا محمـد ﷺ أرقـى المعـايير الأخلاقيـة وأكثرها رفعة وسُمُوًّا باعتبار أنه ﷺ قد بعثه الله للـناس كافة، وكانت أخلاق النبي ﷺ تتسق مع هذه المعايير الإلهية للرقى الأخلاقي، وهى الحقيقة التي أعلنها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في قول الله سبحانه وتعالى: " ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(سورة القلم:٤).

ومن هم الذين يتجـه إليهم بدعوته ؟ وما هو مجال دعوته ؟ إنهم كل البشر في كل أنحاء العالم !

ويؤكـــد الله سـبحانه وتعالى في القرآن الكريم أن رسالة خاتم الأنبياء والمرسـلين محمـــد ﷺ إنمـا هى موجهة إلى كل البشر في كل أرجاء العالم في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(سورة الأنبياء: ١٠٧).

❁ رسول من الله إلى كل الناس في العالم كله :

وليس هذا الاعتبار مجرد ملاحظة سطحية عابرة، وليس هذا الاعتبار، اعتبار أن محمدًا ﷺ إنما هو رسول الله إلى الناس كافة في العالم كله مجرد اعتبار جميل الشكل مُرْضٍ للنفوس يزجى إلى نفوسنا شعورا بالفخر والخيلاء دون أن يكون متسقا مع الواقع الفعلي في ممارسات رسول الله ﷺ إلى البشر جميعا أثناء دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له إبان حياته ﷺ. إننا بالفعل نجد أن بين صحابته ﷺ بالإضافة إلى صحابته من العرب، نجد سيدنا بلالاً الحبشي، ومن صحابته أيضا سلمان الفارسي، ومن صحابته أيضا عبد الله بن سلام اليهودي. ويجوز أن يقول المتشككون: إن هذه مجرد مصادفة ولو قالوا ذلك فماذا عساه أن يكون قولهم بشأن الحقيقة التاريخية القائلة إنه ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى كان قد بعث بخمس رسائل يحملها خمسة من أتباعه إلى خمسة ملوك وحكام في كل الأقطار المأهولة بالسكان في عالمه المعاصر داعيا لهم، وداعيا شعوبهم للانضمام إلى الإسلام والدخول في دين الله الصحيح وهم :

١) ملك الفرس : كسرى .

٢) حاكم مصر تحت الحكم الروماني : المقوقس .

٣) النجاشي : حاكم الحبشة .

٤) الإمبراطور الروماني : هرقل بالقسطنطينية .

٥) ملك اليمن .

وهكذا كان محمد ﷺ قد أكد من خلال الممارسة الفعلية لمهام وواجبات دعوته الدينية صفة العالمية في دعوته، ولم تكن دعوته قاصرة

على قومه من العرب وحدهم ، مما يحقق أيضا ، ودون أي ريب صفة "عظمة الهدف أو الغاية" التي اعتبرها لامارتين أول مقاييس عظمة العظماء في التاريخ . هل يوجد في التاريخ مثال آخر يضارع مثل هذه العالمية في الدعوة إلى الدين في أي دين آخر غير دين الإسلام ؟ ولم يكن هدف سيدنا محمد ﷺ هو تحطيم أي سجل سابق في مدى اتساع نطاق الدعوة الدينية ولكنه بكل بساطة كان يؤدي الأمانة التي أوكلها إليه رب العالمين .

٢ـ بساطة وضآلة تكاليف وسيلة تحقيق الغاية:

لم يولد محمد ﷺ وفي فمه ملعقة من فضة . لقد بدأت حياته بداية ضئيلة المساندة في تحقيق الهدف . لم يكن ابن ملك أو إمبراطور أو سليل أسرة حاكمة ليسانده هذا الاعتبار في تحقيق أي هدف كبير . كان أبوه قد مات قبل أن يولد ﷺ . وماتت أمه وهو في السادسة من عمره . وهكذا كان ﷺ يتيم الأبوين، وهو لا يزال في عمر الطفولة الغضة . ويتولى رعايته جَدُّهُ عبدُ المطلب . ولكن يتوفاه الله بعد ثلاثة أعوام فقط . وحالما استطاع ﷺ القدرة على العمل شرع في أن يرعى أغنام عمه أبى طالب . وتستطيع أن تقارن المفارقة الكبيرة بين هذا الطفل اليتيم الأبوين وبين بعض الشخصيات الدينية العظيمة الشأن ممن سبقوه في هذا المجال ، مجال النبوة وحمل رسالة الله إلى الناس ، ولابد أنك ستعجب مما كان مخبوءًا له في عالم الغيب !

كان سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو الجد الأعلى لسيدنا موسى ، وسيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهم جميعا السلام ابنا لأحد رجال الأعمال في

مصر. ولقد تمت تنشئة وتربية سيدنا موسى عليه السلام بداخل قصر فرعون مصر. وعلى الرغم من أن سيدنا عيسى عليه السلام كان يوصف بأنه نجار، وابن نجار[8] فلقد كانت قد أتيحت له فرصة أن يتزود بالعلم، كما أتيحت له أسباب القوة المادية منذ بدء دعوته بانضمام بطرس، وفيليب، وأندراوس إليه، مساندين لدعوته لا لمجرد أن هالة من النور كانت تحيط برأسه، فلم تكن هنالك أي هالة من النور حول رأسه في حقيقة الأمر، ولكن بسبب تأثير مظهره القوي، ولهجته الآمرة. ولقد كان المسيح عليه السلام يستطيع أن يسيطر على الجماهير من قومه اليهود في أورشليم وكان الحواريون يساندونه في ذلك كل المساندة كما كان ذلك يتجلى أثناء أعياد اليهود واحتفالاتهم، وكانت تعد له موائد الطعام للغداء، أو لتناول وجبة العشاء، وكان يستطيع أن يخاطب اليهود باللغة المادية التي يفضلونها كما يتمثل ذلك في قول الكتاب المقدس: "ولما وجدوه في عبر البحر قالوا له: يا معلم متى صرت هنا. أجابهم يسوع وقال: الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم". (يوحنا ٦: ٢٥-٢٦).

❁ لم يكنْ يَملِكُ ما يُغرِي بـه :

لم يكن لدى محمد ﷺ خُبْزٌ ولا لَحْمٌ لكي يقدمه إلى الناس ليكسب رضاهم واعترافهم بنبوته ورسالته. لم يكن معه قطع من السكر من أي نوع أو حجم في هذه الحياة الدنيا أو الحياة الآخرة. والشيء الوحيد الذي كان يستطيع أن يقدمه لشعبه من الرعاة السعي المستمر، وتحمل المشقات لممارسة الحياة، كما يجب أن تمارس الحياة فوق الأرض

---

(٨) ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ (النساء: ١٧١).

للوصـول إلى مـثوبة الله في الحياة الآخرة . وكانت حياة النبي ﷺ نفسه كتابا مفـتوحا أمامهم . كان قد أوضح لهم منهجه في الحياة ، وفي الدعوة إلى دين الله مـن خـلال النبـل في أخلاقـه ، ومـن خـلال سلامة واستقامة مقاصده وأهدافـه ، ومـن خـلال حماسته القوية لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل وهو الهـدف الأسمـى لمـا كان يبشر به وينادي به من دين قويم . ولقد أفصحت كـل تلك المناقب والخلال عن البطولة المثلى للبطل ، كما ينبغي أن يكون الـبطل بكل مقاييس بطولة الأبطال ، فاتبعوه . وتقييم المؤرخ ستانلى لين بـول لهـذه البطولة المحمدية جميل وصادق جمالا وصدقا يغري أن نقتبس منه ما يلي بالحرف الواحد إذ يقول :

" كـان محمـد ﷺ متحمسا في أداء رسالته على نحو بالـغ النبل عندما تكون الحماسة في تحقيق الأهداف النبيلة هى الملح الضروري للناس لكي يسـتطيعوا الحيـاة فوق الأرض ، وعندما تكون الحماسة في تحقيق الأهداف النبيلة هى الشيء الوحيد الذي يحفظ حياة الناس من العفن أثناء بقائهم يعيشون أحياء بين الأحياء من البشر .

وفي كثير من الأحيان ربما يسيء بعض الناس استخدام الحماسة عندما لا تكون حماستهم مرتبطة بقضايا غير جديرة بأي حماسة ، أو عندما يزرعون بـذور حماسـتهم في أرض مجدبـة لا تنبت أي ثمار طيبة . ولم يكن ذلك هو شـأن حماسـة محمـد ﷺ . لقـد كان محمـد ﷺ حماسيا مفعما بالحماسة عندما تكـون الحماسة هى الشيء الوحيد الذي يحتاج إليه العالم لكي يظل العالم بخير حال ، وكانت حماسته ﷺ حماسة نبيلة من أجل قضية نبيلة .

لقد كان محمد ﷺ واحدا من أولئك القلائل الذين كانوا يستمتعون بالسعادة والذين كانوا يفرحون كل الفرح عندما يجعلون من الحق الأوحد الأعلى النبع الوحيد للحياة .

لقد كان محمد ﷺ هو رسول الله الإله الواحد ، ولم ينس طوال حياته إلى نهايتها على الإطلاق وحدانية الله ، ولم ينس أبدا الرسالة الإلهية التي كانت هي لب ومحور حياته كلها . ولقد كان يسمو دائما بأفضاله على الناس وهو واثق بنفسه بسبب وثوقه بمركزه باعتبار أنه رسول الله الذي اختاره لأداء رسالته إلى الناس ، بالإضافة إلى التواضع التام الجميل الذي تمتد جذوره إلى معرفته التامة بالضعف البشري دون المدد من الله سبحانه وتعالى ".

ويمكن التسليم بسهولة أن محمدًا ﷺ كان مزودا بأقل ما يمكن تصوره من الإمكانات وأسباب القوة البشرية . وفي الحقيقة ، لقد كانت كل الظروف تعمل ضده . ولكن ، ماذا كان نصيبه من النجاح في أداء رسالته في نهاية مدة بقائه في هذه الدنيا ؟ لقد كان قد أصبح سيد شبه الجزيرة العربية ! وما هي الإمكانات والوسائل التي لا حصر لها التي كانت تحت تصرفه آنذاك ؟ سندع لأحد المبشرين بالدين المسيحي يتحدث في هذا الصدد :

" كان محمد ﷺ يجمع في شخصيته بين إمكانات "بابا" المسيحية ، وإمكانات "قيصر" الإمبراطورية الرومانية . ولكن لم يكن له غرور وغموض وصلف البابا، ولم يكن لديه جيوش وأسلحة القيصر . لم يكن له جيش متأهب للقتال ، ولم يكن له حرس إمبراطوري ممتاز التسليح ، ولم يكن يقيم في قصر من القصور المنيعة الضخمة الفخمة البناء ، ولم يكن

لـه مخصصات مالية ثابتة يتقاضاها بموجب منصبه الديني أو الدنيوي . ولو كـان لأي إنسـان الحـق في أن يقول : إنه كان يمارس الحكم بموجب حق أو أمـر إلهـي فلقد كان ذلكم هو محمـد ﷺ لأنه كان يمتلك كل قدرات ممارسة الحكـم دون أن يكـون قـد ورث أدوات ووسـائل الحكم كما جرى بذلك شـأن المـلوك والقياصـرة والحكـام في الممـالك والإمـبراطوريات ".

(ر.بوزويرث سميث في كتابه : محمـد والمحمدية - ص ٩٢ - لندن ١٨٧٤) .

❁ عنايةُ الله جنـده:

كـان ضعف وقلة إمكاناته هما سر قوته . إن نفس الحقيقة المتمثلة في أنـه لم يكـن يمتـلك مُقَدَّمًـا وسائل المساندة المادية جعلته يضع كل ثقته بـالله سبحانه وتعـالى. وكـان نجاحه مذهلا إلى أكبر حد يمكن تصوُّرُه . ألا يجـوز للمسـلمين بحق أن يقولوا: إن العمل كله كان من صنع الله سبحانه وتعالى ؟ ألا يجوز لهم أن يقولوا بحق: إن محمـدًا ﷺ كان مجرد اختيار من الله للإنسان الذي يحقق إرادة الله ويبلغ رسالة السماء إلى الأرض ؟

٣ـ نتائـج باهـرة:

عـلى حـــد قــول تومـاس كـارلايل :"لقـــد كـان محمـد ﷺ رجلا واحـــدًا في مواجهة كل الرجال ". رجل واحد جاء بالدين الصحيح ، دين الإسلام من الله إلى الناس . وقاوم الناس الدين الجديد . وحقق محمـد ﷺ الانتصـار للدين الصحيح ، دين الإسلام ، وكان انتصار محمـد ﷺ في هذا الصـدد انتصـارا باهـرا ، انتصارا كان يمثل أروع ما يكون الانتصار عندما كـان يقـف وراء محمــد ﷺ في حجـة الـوداع مائة وأربعة وعشرون ألف

مسلم . وكم كان عدد المسلمين الذين لم يحضروا معه حجة الوداع من الرجال والنساء والأطفال المؤمنين برسالته ؟

ويقول ابن هشام في كتاب السيرة النبوية : "في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر الهجري الموافق تقريبا لليوم الثاني من شهر يونيه من سنه ٦٣٢ ميلادية انتقلت روح النبي العظيم ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو يصلي ويدعو الله بصوت خفيض ".

وعندما سمع سيدنا عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- الأخبار المحزنة عن انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى فقد اتزانه الذي كان معروفا عنه ، لأنه كان قد صُدِمَ صدمة شديدة لدرجة أنه صاح قائلا: " لو قال أحد إن محمدًا ﷺ قد مات لضربت عنقه!" ولكن سيدنا أبا بكر الصديق رضى الله عنه عندما تحقق أن النبي ﷺ كان قد انتقل بالفعل إلى الرفيق الأعلى خرج إلى الناس من مسكن النبي ﷺ وقال: "أيها الناس إن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ".

وأعادت كلمات أبي بكر الصديق -رضى الله عنه- إلى سيدنا عمر الفاروق صوابه . هل كان هذا الرجل ، عمر بن الخطاب -رضى الله عنه - الذي قدر له أن يكون هو الخليفة العظيم الثاني في الإسلام- في تلك اللحظة يتصور أنه بعد ألف وأربع مائة عام سيصبح عدد أتباع محمد ﷺ ألف مليون مسلم ؟ هل كان يستطيع أن يعرف أن دين النبي ﷺ سيكون هو أكبر وأسرع الأديان انتشارا في العالم ؟

لقد سبقت الديانة المسيحية الإسلام زمنيا بزمان يصل إلى ٦٠٠ سنة . ويدعى المسيحيون أنهم من حيث عدد الأتباع لدينهم يفوقون عدديا أتباع

أي ديـن آخـر . وهـذا صـحيح مـن الـناحية العددية البحتة ، ولكن من الأفضـل أن نـنظر إلى الصورة في وضعها الصحيح الذي يمكننا من إدراك كل تفاصيلها :

يقــول ريفـرانـد بورلى : "يوجـد عدد أكبر من الناس الذين يعلنون انـتماءهم إلى المسـيحية عـن عــدد الـناس الذيـن يعلـنون انتماءهم إلى الإســلام ، ولكـن عـدد مـن يمارسـون طقوس العبادات من المسلمين في العالم أكثر من عدد من يمارسون العبادات من المسيحيين ." (مقال بعنوان: حيـاة محمــد ﷺ في مجـلة: مسـنجر الصـادرة في الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ للقس بورلى ".

وأنا أفهـم مما قاله القس بورلي أنه يحاول أن يخبرنا أنه يوجد أناس في العـالم يضـعون علامة في خانة المسيحية إشارة إلى أنهم ينتمون إلى الديانة المسـيحية في الإحصـاءات الـرسمية . وليـس مـن الضـروري أنهم يؤمنون بالعقـائد المسـيحية . ومن الممكن في حقيقة الأمر أن يكونوا ملحدين أو مـن طائفـة "بوش بابتستس" وهى طائفة من المسيحيين الذين يرفضون الانـتماء إلى أي كنيسـة مسـيحية ، أو أي مذهـب من المذاهب المسيحية ، ولكـنهم يسـجلون أنفسـهم في خانـة الدين بالإحصاءات الرسمية باعتبار أنهم مسيحيون لمجرد التمايز عن اليهود أو الهندوس أو المسلمين . وحيث أنهم ينحدرون من أوساط مسيحية فإنهم سيصنفون أنفسهم باعتبار أنهم مسيحيون . وعلى هذا الأساس وباعتبار أن الإنسان المتدين يلزم أن يؤمن بعقائد دينه ، ويلزم أن يمارس عبادات دينه ، يوجد مسلمون أكثر عددا من المسيحيين في العالم .

من الناحية الزمنية، ظهر الإسلام متأخرا عن المسيحية بحوالي ستمائة سنة، ولكن من المدهش أن عدد المسلمين يجيء في المرتبة التالية مباشرة وبفارق ضئيل عن عدد المسيحيين، كما أن الإسلام في طريقه إلى تقليص الفارق العددي بين الإسلام والمسيحية بسرعة فائقة. إن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارا في العالم اليوم. (انظر الرسم البياني ص ٦٢). لقد بلغ عدد المسلمين بليون مسلم! ووجود هذا العدد الكبير من المسلمين في العالم يلفت الأنظار بشدة، ويضاف إلى ذلك أن الإخلاص في العبادات وإيمان المسلمين بمعتقدات الإسلام مدهش إلى أكبر حد يمكن تصوُّرُه!

وعندما يضع شخص مثل الشاعر المؤرخ الفرنسي مقاييسه الثلاثة لعظمة الشخصية وهى:

(أ) – عظمة الهدف (ب) – ضآلة الوسائل

(جـ) – النتائج الباهرة في اعتباره، فهل يستطيع أن يجد أي شخص آخر بحيث يكون أعظم من محمد ﷺ. وبالإضافة إلى ذلك نجد أن لامارتين يلفت أنظار القراء إلى الأدوار التي قام بها محمد ﷺ وهى أدوار عظيمة يستحيل أن يقوم بها شخص واحد إذ أن لامارتين قد اعتبره فيلسوفا، وخطيبا، ورسولا من رسل الله عليهم السلام، ومشرعا، ومحاربا، وهادما للأفكار الخاطئة الشائعة، ومنشئا للمعتقدات الصحيحة، وهادما للأصنام والتماثيل، ومؤسسا لعشرين إمبراطورية ومملكة من إمبراطوريات وممالك الأرض، ومؤسسا لمملكة روحية واحدة. ذلك هو محمد ﷺ.

وبالـنظـر إلى كـل هـذه المقـاييس ، وأكرر كلمـة "كـل" ، بالنظر إلى "كـل" هذه المقاييس التي يمكن أن تقاس بها العظمة البشرية يجوز لنا أن نسأل : هل يوجد أعظـم من محمـد ﷺ ؟ "

لا ، لقـد كـان محمـد ﷺ هـو أعظـم رجل عاش على وجه الأرض . وذلك طبقا لرأي ومقاييس رأي المؤرخ الفرنسي لامارتين . ولقد صاغ الله سبحانه وتعالى نفس السؤال بما يفيد أن محمـدًا ﷺ هو أعظـم رجل عاش عـلى وجـه الأرض ، وذلـك في قـول الله سـبحانه وتعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (سورة الشرح : ٤) .

ولقـد رفع الله له ذكره بما لا يدع مجالا لأي شك ، فهو ﷺ وفقا لإجماع ذوى الـرأي مـن الشـرق ومـن الغـرب هـو أعظم رجل عاش على وجه الأرض .

❁ صفـة الرحمـة :

يـدأب المـروِّجُون لـلدعاية المسيحية على أن يفخروا ويفاخروا بأنه لا يوجد في تاريخ البشرية أي شخص يمكن مقارنته بصيحة المسيح عليه السلام وهو عـلى الصـليب في مجـال الرحمة بالبشر ، وفي مجال الصفح عن آثام البشر وخطايـاهم ...... وذلك عندما صرخ المسيح قائلا: "يا أبتاه اغفـر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون". (لوقا ٢٣ : ٣٤) .

ويـبـدو مدهشا إلى أقصى الآماد أن القديس لوقا كان هو الوحيد من بـين كُـتَّاب الأنـاجيل الأربعـة المعترف بها الذي ألهمـه الروح القدس أن يكـتب بقـلمه هـذه الكـلمات الـتي طـالب فيها المسيح أباه أن يغفـر لمن شـرعوا في قتله صلبًا . وكُتَّاب الأناجيل الثلاثة الآخرون: متى ، ومرقص

ويوحنا ، لم يسمعوا أبدا هذه الكلمات تصدر عن المسيح في ذلك الموقف الرهيب المشهود ، وربما حسبوها كلمات فارغة من المعنى لا أهمية لها لدرجة أنها لا تستحق أن تسَجَّل من جانب أي منهم . ولم يكن القديس لوقا واحدا من الحواريين الاثنى عشر الذين كان قد اختارهم المسيح ﷺ . ووفقا لرأي مراجعي ومحرري النسخة المنقحة من الإنجيل (R.V.S.) فهذه الكلمات التي ينسبها القديس لوقا إلى المسيح وهو فوق الصليب ليست موجودة في معظم المخطوطات القديمة للكتاب المقدس مما يعني في الواقع الفعلي أنها كلمات منسوبة زورا إلى المسيح ﷺ .

ولقد وَرَدَ في طبعة النسخة الجديدة من إنجيل الملك جيمس التي أصدرها الناشر توماس نيلسون في عام ١٩٨٤ أن هذه الكلمات التي يحاول مُرَوِّجُو الدعاية المسيحية أن يستدلوا بها على تسامح ورحمة المسيح ﷺ والمسيحية ، هذه الكلمات ليست موجودة في النسخة الأصلية للمخطوطة اليونانية لإنجيل القديس لوقا . وبكلمات أخرى لقد تم تزييف وإضافة هذه الكلمات بواسطة شخص من الأشخاص ذوي الفضل في تحريف الكلام في إنجيل لوقا . وعلى الرغم من أن هذا النص غير موثوق بصحة نسبته إلى قائله سنظل نضعه في اعتبارنا لأنه يشير إلى التسامح والمحبة للأعداء مما دعا إليه المسيح بنفسه .

ولكي يكون للتسامح أي قيمة ، فمن اللازم أن يكون الشخص المتسامح في وضع يتيح له أن يعفو وأن يسامح . وعندما يكون ضحية الظلم لا يزال في أيدي أعدائه وفي مخالبهم لا حول له ولا قوة ثم يصيح قائلا لأعدائه : "أنا أعفو عنكم" فهذا الكلام لا معنى له . ولكن عندما يقلب الجانب الذي تعرض للعدوان المائدة على أعدائه ويصبح في

وضع يمكنه من الانتقام منهم أو توقيع عقوبة مماثلة لما حاق به عليهم، ورغم ذلك يقول لهم: "أنا أعفو عنكم" فعندئذ فقط يكون لذلك بعض المعاني!

❀ الرحمة عند محمد ﷺ:

ولنقارن الآن هذه الرحمة(*) المزعومة والعفو عند الأعدام رغم عدم المقدرة بفتح مكة التاريخي الذي تم دون إراقة للدماء الذي حققه محمد ﷺ وهو يقود جيشا من المسلمين بلغ عدده عشرة آلاف مسلم من أتباع سيدنا محمد ﷺ. ويصف لنا سيد أمير على تفاصيل هذا التسامح وحقائق ذلك العفو عند المقدرة عن الأعداء بقوله:

"مدينة مكة التي كانت قد عاملت النبي ﷺ معاملة بالغة القسوة، وطردته مع أتباعه المخلصين طلبا للجوء إلى الغرباء، مكة التي كانت تهدد حياته وحياة أتباعه، موجودة الآن تحت قدميه وأعداؤه القدامى القساة غلاظ القلوب الذين كانوا قد سحقوا الإنسانية بكل معاني الإنسانية عندما كانوا ينزلون عقوباتهم القاسية على المسالمين من أتباع محمد ﷺ رجالا ونساء، وعلى الموتى أيضا إذ كانوا يمثلون بجثثهم أبشع تمثيل كانوا الآن تحت رحمته تماما. ولكن في ذروة انتصاره كان كل ما قاساه من شرورهم وآثامهم قد تم نسيانه. وكل إساءة كانت قد وجهت إليه كان قد عفا عن مرتكبيها. وامتد العفو العام من جانب محمد ﷺ ليشمل كل سكان مكة." (سيد أمير على في كتابه: روح الإسلام).

(*) حسب سيدنا عيسى عليه السلام أن الله قال له: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ (سورة مريم: ٤١).

وبعـد أن تكاثر أمام النبي ﷺ سكان مكة المغلوبة على أمرها خاطبهم قـائلا لهـم :"يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟" قالوا : "خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ." قال ﷺ :"سأقول لكم كما قال يوسف لإخوته . لا تثريب عليكم اليوم . اذهبوا فأنتم الطلقـاء !"

والآن ، هـذا حدث جرت وقائعه ، ولا يوجد لـه في حقيقة الأمر نظير ولا شـبيه في تاريخ العالم . وتقدمت أمواج من الناس بعد أفواج يعتنقون دين الإسلام. ولقد شهد الله لهذا المسلك النبيل لرسوله الكريم محمـد ﷺ وذلك في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(الأحزاب:٢١) .

وكـم كان لامارتين مجيدا عندما سجل رجع أصداء هذه المعاني النبيلة عـندما تساءل قائلا: "بالنظر إلى كل المقاييس التي تقاس بها العظمة لدى العظمـاء من البشر ، يجـوز لنا أن نسأل : هل يوجـد أي رجل أعظـم من محمـد ﷺ ؟ "

وإجابـة لهـذا السـؤال اللامـرتيني نستطيع أيضا أن نقول مرة أخرى : "لا! لا يوجـد رجل أعظم من محمـد ﷺ . محمـد ﷺ هو أعظـم رجل عاش على وجه الأرض ! "

ويتضـح ممـا سبق بيانـه أن نبيـنـا محمـد ﷺ قد كسب مدحا وثناء لا نظير له، ولا خلاف ولا معارضة فيه من جانب غير المسلمين ، من مختلف الأديـان ، ومن مختلف مجالات الفكر والبحث العلمي . ولكن هذا كله لا يكتمل كل الكمال دون تقديم شهادة النبي السابق زمنيا لنبي الإسلام ﷺ

ألا وهو المسيح عيسى ابن مريم ﷺ . وسنقدم الآن مقياس سيدنا عيسى ﷺ لقياس العظمة المحمـديـة .

❁ يوحنـا المعمـدان :

كـان يوحـنـا المعمـدان ، المعـروف لـدى المسـلمين ، باعتبار أنه هو سيدنا يحيـي ﷺ معاصـرا للسـيد المسـيح ﷺ وكان كل منهما ابن خالة الآخـر . وهـذا هو ما قاله المسيح عن سيدنا يحيي ﷺ طبقا لرواية إنجيـل متى في هـذا الصـدد ، قـال المسـيح عـنـه : "الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمـدان ". (متى ١١: ١١) .

وكـل البشـر مولـودون مـن النسـاء ؛ وطـبقا لهذه الحقيقة التي قررها المسـيح ﷺ يكون يوحنا المعمدان أعظم من الأنبياء السابقين مثل: موسى ، وداود ، وسليمان ، وإبراهيم ، وأشعياء عليهم السلام بدون استثناء لأي نـبي مـن أنـبياء إسـرائيل . مـا الـذي يعطـي لسيدنا يحيي ﷺ ، أو يوحنا المعمـدان هذه الأفضلية ؟ يستحيل أن يكون السبب في هذه الأفضلية هو معجـزة مـن المعجـزات ، لأن الكـتاب المقـدس لم يسـجل أي معجـزات لسـيدنا يحيي ﷺ أو يوحنا المعمدان . ويستحيل أن يكون السبب في هذه الأفضـلية هـو الـتعاليم الديـنية ، لأنه لم يأت بأي تعاليم دينية جديدة . ما الـذي يجعلـه إذن أعظـم مـن كـل الناس الذين ولدتهم أمهات بمن فيهم أنـبياء بـني إسرائيل السابقون له زمنيا ؟ السبب في ذلك بكل بساطة هو أن يوحـنا المعمـدان كـان مبشـرا بقدوم المسيح . وكانت تلك البشارة هى الـتي جعـلت يوحـنا المعمدان أعظم من الأنبياء الذين كانوا قد سبقوه في تـاريخ أنـبياء بـني إسرائيل . ولكن المسيح ﷺ قد صرح أيضا بأنه أعظم من يوحنا المعمدان ، فلمـاذا ؟

لقد قال المسيح بالحرف الواحد طبقا لما ورد في إنجيل يوحنا : "وأما أنا فلي شهادة أعظم (*) من يوحنا . لأن الأعمال التي أنا أعملها هى تشهد لي أن الأب قد أرسلني ". (يوحنا ٥ : ٣٦) .

إن هذه "الشهادة" التي أشار إليها المسيح ﷺ في قوله :"أما أنا فلي شهادة" التي ائتمن الله المسيح ﷺ لكي يؤديها إلى أتباعه طالبا منهم أن يتبعوا نبي الإسلام ﷺ حالما يتم ظهوره وقدومه إلى البشرية هى التي تجعل شهادة المسيح ﷺ أعظم من شهادة يوحنا وهكذا يمكن ملاحظة قيمة شهادة التنبؤ بقدوم نبي تال كما أعلنها المسيح ﷺ نجد ما يلي :

(١)- يوحنا المعمدان أعظم من كل أنبياء بني إسرائيل لأنه بَشَّر بقدوم المسيح ﷺ ، ولم يبشر أي نبي من أنبياء بني إسرائيل بذلك قبل يوحنا . وبالمثل نجد أن عيسى ﷺ أعظم من يوحنا المعمدان لأن سيدنا عيسى ﷺ قد بشر بقدوم سيدنا محمد ﷺ ، فهو ، سيدنا عيسى ﷺ ، يعتبر صاحب أعظم بشارة بقدوم أعظم نبي ، خاتم الأنبياء والمرسلين نبي الإسلام ﷺ "روح الحق" على حد تعبير سيدنا عيسى ﷺ أو "المعزى" بتعبير سيدنا عيسى ﷺ أيضا (**) الذي سيقود "العالم" بتعبير سيدنا عيسى ﷺ إلى "كل الحق" بتعبير سيدنا عيسى ﷺ (كما ورد في الأصحاح ١٦ من إنجيل يوحنا) .

(*) من الثابت بنصوص قاطعة الدلالة في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم أن المسيح ﷺ كان قد بشر أتباعه بقدوم سيدنا محمد ﷺ خاتما للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ومعه الشريعة الكاملة لكي تكتمل بذلك حلقات سلسلة الأنبياء ولكي يكمل الله ﷻ للناس أمور الدين . (المترجم)

(**) يقول المسيح ﷺ :"لكني أقول الحق : إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم "المعزى" . (يوحنا ١٦ : ٧) ويقول أيضا :"إن لي أمورا كثيرة لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك "روح الحق" فهو يرشدكم إلى "جميع الحق" لأنه "لا يتكلم من نفسه" بل "كل ما يسمع يتكلم به" ويخبركم بأمور آتية ." (يوحنا ١٦ : ١٢-١٣) . هذه هى نبوءة المسيح بقدوم سيدنا محمد ﷺ . (المترجم)

(٢)- مهمــــة ورسالة سيدنا عيسى ﷺ أو ما أطلق عليه المسيح ﷺ قوله "الأعمال التي أناطها الله به لكي ينجزها" كانت محدودة داخل نطاق معين لا تتجاوزه هو "الغنم الضالة من بيت إسرائيل" على حد قول المسيح وفقا لما جاء في إنجيل متى (١٥: ٢٤) إذ يقول في هذا الصدد : "فأجاب وقال : لم أُرْسَلْ إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ." (متى ١٥: ٢٤) .

هـــذه هي رسالة المسيح ، وتلك هي مهمته شأنه في ذلك شان كل الأنبياء السابقين عليهم السلام . كان كل نبي منهم مرسلا إلى قومه فقط ، وكان المسيح مرسلا لهداية قومه ، بني إسرائيل ، وتصحيح وتصويب ما خربوه وحرفوه من شريعة سيدنا موسى ﷺ .

أما محمـــد ﷺ فقد كانت رسالته ذات طابع عالمي . كانت رسالته إلى العالم كله ، إلى البشرية كلها كما حدد إطارها العالمي إلى العالم كله وإلى البشرية كلها الله سبحانه وتعالى بصريح العبارة في القرآن الكريم في مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) .

ونزولا على مقتضيات الرسالة التي كلفه الله أن يؤديها إلى البشر جميعا قام محمـــد ﷺ بتبليغ هذه الرسالة إلى كل إنسان وإلى كل البشر بصرف النظر عن الجنس أو الطبقة أو العقيدة . لقد رحب بهم جميعا محمـــد ﷺ في دين الله دون أي تمييز . ولم يكن لديه ﷺ أي ميل أو أي فكرة عن تقسيم الناس إلى "كلاب وخنازير" كما هو الشأن في إنجيل متى

(٧: ٦) أو "خـراف وماعز" كما في إنجيل مَتّى (٢٥: ٣٢) . لقـد كان ﷺ هو رسول الله رحمة لكل البشر في العالم كله كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في الـنص القـرآني المشـار إليـه آنفـًا : ﴿ وَمَـــا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّــلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وهو ﷺ لم ينس هذه الرسالة منذ بدء بعثته إلى يوم وفاتـه .

وفي أواخر سِنِيّ عُمْرِه المبـارك ﷺ ، أتيحت لـه فرصة أن يستعرض ما مضى في حياته من مشاق وأخطار تكللت في النهاية بالنجاح غير المسبوق في أي مكـان أو أي زمـان ، شـعر محمـد ﷺ أنه يستطيع أن يجني ثمار كفاحه وامتدت آماله لتصل إلى آفاق حياة تسودها الحرية لكل الناس ، حياة مليئة بالرضـى والقناعة والراحة من كل المتاعب . ولم يكن يريد ذلك لنفسه إذ لم يكن لديه وقت للراحة أو الاسترخاء . لديه عمل كثير ليعمله . ويذكره الله بهـذه الحقيقـة في قـول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة سبأ : ٢٨) .

كيـف تسـنى لـه ﷺ أن يـتجاوب مـع هـذا الـتحدي المتمثل في هذا التكـليف الكـبير بأن تكون رسالته إلى الناس جميعا وهو في تلك المرحلة المـتقدمة مـن عمـره المـبارك ؟ لم تكـن توجـد في حوزة البشرية آنذاك أي وسـائل اتصـال إلكترونيـه لـتكون تحت تصرفه لأداء هذه المهمة الكبرى الـتي تشـمل العـالم كلـه . ولم تكـن هنالك أي أجهزة تلكس ، أو أجهزة فـاكس بحيـث كـان يسـتطيع أن يسـتخدمها. ماذا كان يستطيع أن يفعل ؟ ولأنـه ﷺ كـان أميـا لا يقـرأ ولا يكـتب فـلقد اسـتدعى إليـه أشخاصـا يستطيعون الكتابة ، أملى عليهم خمسة خطابات ، إلى إمبراطور الرومان في

القسطنطينية ، وإلى المقوقس حاكم مصر ، وإلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى ملك اليمن ، وإلى ملك الفُرْس ، ثم خمسة من الصحابة ، امتطى كل منهم جواده وأرسل بهم إلى خمسة اتجاهات داعيا بذلك أمم العالم المعمور من حوله إلى دين الله الذي اختاره الله للعالم كله .

ولقد حالفني حُسْن الحظ بحيث شاهدت بنفسي واحدة من تلك الرسائل المباركة ، في متحف توبكابي في مدينة استامبول (أو القسطنطينية) في تركيا . وكانت تلك الرسالة يعلوها الغبار ! لقد احتفظ الأتراك بمادة الرسالة، ولكن كان يعلوها الغبار . وكان نص الرسالة يبدأ على النحو التالي: "من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم بالقسطنطينية أسلم تسلم ".

وبعد هذه الدعوة إلى الإسلام ورد هذا التحذير المستمد من القرآن الكريم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(سورة آل عمران: ٦٤) .

وبعد هذا النص القرآني الحكيم الذي تضمنته الرسالة من محمد ﷺ إلى هرقل إمبراطور الرومان تنتهى الرسالة بالخاتم النبوي الذي يقول: " لا إله إلا الله محمد رسول الله ".

والخطاب الموجود في تركيا يثير لدينا أعظم فضول وحب استطلاع . إن الآية القرآنية التي وردت في مضمون الخطاب موجودة في كل بيت مسلم . وهى تتلى وتعاد تلاوتها ألف مرة ومرة دون أن يتحرك من يقوم

بتلاوتها أقل حركة في سبيل توصيل "الرسالة" إلى من وجه الله إليهم هذه الرسالة !

ولتعد النظر مرة أخرى إلى نص الآية القرآنية الكريمة . إنها موجهة إلى أهل الكتاب- وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى . ولكننا منذ أكثر من ألف عام قد تجاهلنا وأهملنا شأن هذا التوجيه الإلهي الكريم من جراء تقصيرنا وفتور هممنا وضعف إرادتنا . إننا نجلس فوق كنوز هذه الرسالة الإسلامية مثل الكوبرا فوق كنز من الثروة الهائلة . الثروة موجودة ولكن الكوبرا تحول دون استفادة الناس منها ما دامت الكوبرا موجودة فوقها تحول دون انتفاع المستحقين من الانتفاع بتلك الثروة . وهذا الإهمال التام لشأن هذه الرسالة الإلهية سيستمر لكي ينتج عنه أضرار وأخطار وآلام لا حصر لها بالنسبة إلى الأمة الإسلامية في الأجيال القادمة ما لم تؤد الأمة الإسلامية الرسالة التي أوكل الله إليها أن تؤديها إلى الأمم الأخرى .

وبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة من قراءتنا وترتيلنا بمختلف طرق وأساليب القراءة والترتيل للقرآن الكريم ، نحن لا نزال نسمع هذه الآية القرآنية الكريمة التي تنبهنا إلى حقيقة بالغة الأهمية إذ يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة سبأ : من الآية ٢٨) .

ولقد وَرَدَ هذا التعبير القرآني الحكيم ، وصدق الله العظيم في ختام الآية القرآنية الكريمة التي أنزلها الله في القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة مضت: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

(سورة سبأ : ٢٨) .

ولقـد كان ذلك هو التعبير الصحيح الذي ينطبق كل الانطباق على الموقف الديني في العالم فيما بعد. والسؤال الآن هو: هل يختلف الأمر من الناحية الدينية في العالم اليوم عما ورد في ختام هذه الآية الكريمة ؟ لا ، إن الأمـر لا يختلف أي قدر من الاختلاف. ما أكثر الناس الموجودين في العالم اليـوم ولا يعـرفون أن الإسـلام هـو ديـن الله الصـحيح ، ولا يعرفون أن محمـدًا ﷺ هـو آخـر الأنـبياء المرسـلين، أرسله الله بشيرا ونذيرا إلى جميع الناس في كل مكان وزمان ! حقـا ، إن أكثر الناس لا يعلمون بالضبط كما قـال الله سـبحانه وتعـالى في هذه الآية الكريمة. ويوجـد في عالم اليوم عدد من المشركين يفوق عدد من يعبدون الله الواحد الحـق.

هــل يوجـد أي أمل في تغيير هذا الموقف ؟ إن الله سبحانه وتعالى قد أمـر الـنبي ﷺ كما يأمرنا الآن ، وذلك خلال الآيات السبع الأولى في صدر سورة المدثر إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾

(سورة المدثر : ١) .

◄ **ويوجـد ثلاثة اعتبارات في هذه الآيات في صدر سور المدثر:**

(أ) مناسبة خاصة بالنسبة إلى شخص مُعَيَّن .

(ب) درس روحي عام لكل المسلمين .

(جـ) معـنى روحـي عميـق يشير إلى حالة نفسية من الحالات التي توجد في الحياة الروحية للإنسان .

وبالنسـبة إلى الاعتـبار (أ) : كـان الـنبي ﷺ آنـذاك قد تجاوز مرحلة الـتأمل الذاتـي، وكان عليه آنذاك أن يرتدي عباءته ، وأن يخرج ، وأن يبلغ

رسالة ربه ، الله الواحد الحق ، بجرأة وبثبات وعلنا إلى الناس . لقد كان قلبه على الدوام نقيا خاليا من الإشراك بالله ، ولكن كل تصرفاته الآن لن تنحصر في ألا يكون هو نفسه من المشركين ، بل من المحتم عليه أن تتجه كل تصرفاته لتكون خالصة لله وخالصة للدعوة إلى الله الواحد الحق الذي لا إله إلا هو . واحترام الأعراف المتوارثة لدى قومه ، وممارسات عبادتهم الخاطئة يلزم الإطاحة بها . إن جهوده في تبليغ رسالة ربه جهود سخية ، كرس لها كل إمكاناته ولكن تجاوب قومه وعشيرته مع هذه الجهود الشخصية كان عسير المنال ، وكان يحتاج إلى كثير من الصبر وقوة التحمل، وعزاؤه في الجهد والمشقة ، وقلة تجاوب قومه وعشيرته هو رضى الله سبحانه وتعالى عن أمانته في تبليغ رسالة الله إلى الناس .

وبالنسبة إلى الاعتبار (ب) : مهام مشابهة للمهمة التي اضطلع بها رسول الله ﷺ بدرجة أقل في حياة كل مسلم يحرص على حُسْنِ إسلامه ، لكي تكون حياة النبي ﷺ نموذجا عالميا ، يلزم أن يحرص عليه كل إنسان مسلم له في رسول الله ﷺ أسوة حسنة .

وبالنسبة للاعتبار (جـ) : نجد أن المتصوفين المسلمين يدركون جيدا ، أن العباءة إنما هى ملبس خارجي فوق الثياب ، وفوق الجسم ، وفوق كل ما يجول داخل الجسم . والظروف المتعلقة بوجود الظاهري الذي يتبدى للعيان ، وللحواس المدركة في الإنسان ، وهى الظروف اللازمة لنا لكي نستريح عندما نلبي مطالب راحتنا في الحياة إلى حد مُعَيَّن قَدْرَ استطاعتنا ، ولكننا سرعان ما نتجاوز ذلك الجانب الحسي الملموس في حياتنا لكي نتأمل ذواتنا ، وما يدور داخل ذواتنا ، وهو سرعان ما يعلن عن نفسه ويعبر عن وجوده ، وهو في حالته المثلى لا يتجه إلى الحصول على مكافأة

أو الحصول على ملذات مادية ، لا تتسق مع ما ننشده من سمو روحي ، لا يتهافت على الملذات المادية ، ولكن يتجه ، ويهدف إلى الحصول على الفرح والنشوة عندما يتحقق له الحصول على مرضاة الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾

(المدثر:٢-٥) .

يقول عبد الله يوسف على تفسيرا لهذه الآيات في ترجمته لمعاني القرآن الكريم : "الرّجز ، بضم الراء ، أو بكسر الراء هو الشيء القبيح المستهجن وهو يعني أيضا عبادة الأصنام من حيث هى شيء قبيح مستهجن ، ومن الممكن أن يكون الرجز اسم من الأسماء التي كان يطلقها الوثنيون على صنم من الأصنام جريا على عاداتهم في تخصيص كل صنم باسم يميزه عن غيره . ولكن في أيامنا الراهنة يمكن أن نعتبر أن الرجز أيضا يتضمن في معناه الحالة الذهنية المناهضة للإيمان الصحيح بالدين الحق ، وعبادة الله حق عبادته ، وهو يتضمن في معناه أيضا حالات التشكك والإلحاد بالله سبحانه وتعالى ".

﴿ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ " القاعدة القانونية والتجارية هى: أنك تعطي لكي تأخذ ما يحق لك ، بحيث يكون أكثر قليلا مما أعطيت . ولكن عطاءك لله ، وبذلك الجهد في سبيل الله يلزم ألا تنتظر في مقابل ذلك الأجر الناجز . جاهد في سبيل الله ، وفي سبيل خلق وعباد الله ، والله سبحانه وتعالى هو الذي يجزي ما شاء من جزاء ".

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ " إن جهادنا في سبيل الله يتطلب ألا نكون غير صبورين . من الضروري أن نصبر على المكاره والمشاق أثناء جهادنا

في سبيل الله . ومن الضروري أن نثابر ونواصل الجهد في سبيل انتصار قضية الله ، لأننا نؤمن بالله ، ونؤمن أن الله هو العليم الحكيم القوى المتين ، وسيكون كل شيء كما يريد الله سبحانه وتعالى ".

وبالنسبة للعرب عموما ، وبالنسبة إلى النبي ﷺ خصوصا تعتبر العباءة التي يتدثر بها الإنسان ثوبا يتم ارتداؤه فوق كل الملابس ، للحماية من الشمس والرياح والرمال والبرد ، ويمكن القول بأنه كان قد تدثر بهذا الدثار لكي ينهض بأداء عمله وتبليغ رسالته . وعلى الرغم من أن معظم المسلمين في العالم اليوم لا يرتدي كثير منهم العباءة فوق ملابسهم ، ولكنهم في الغالب الأعم يخفون أنفسهم ويختبئون تحت كثير من الأغطية الكثيفة ، لكيلا يؤدي أي شخص منهم واجبه نحو تبليغ رسالة ربه إلى الناس على الرغم من أن النبي ﷺ الذي يعتبره كل مسلم قدوته الحسنة كان قد "تدثر" في عباءته ، وخرج لكي يؤدي إلى الناس رسالة ربه . إن المسلمين في أيامنا الراهنة يتدثر كثير منهم بدثار عقدة الشعور بالنقص والدونية والانحطاط دون نقص أو دونية أو انحطاط في حقيقة الأمر فيما يتصل بأمور دينهم أو دنياهم لو أخلصوا العمل ، وأطاعوا الله وأطاعوا رسول الله ﷺ . وفي ذلك يقول عبد الله يوسف على ما يلي :

"ماذا نستطيع أن نفعل لنجعل نور الله يسطع من خلال الظلمات حولنا ؟ يجب أولا أن نجعل نور الله يسطع داخل أنفسنا بكل إخلاص . وبذلك النور في المشكاة الموجودة داخل قلوبنا نستطيع أن نمشي بخطوات حازمة وثابتة . ونستطيع بكل تواضع أن نزور المحرومين من الراحة ، ونرشدهم ونشجع خطواتهم ، ولن نكون نحن الذين نفعل ذلك ، بل

سيكون النور هو الذي يقوم بالمهمة . ولكن فلننتبه ، إن الفرحة الناجمة عن أن تكون أنت حامل مشعل النور ، ثم تقول لإخوتك : "لقد كنت أنا أيضا أتخبط في الظلام الدامس ، ولكنني وجدت الراحة والسرور بفضل من الله " هكذا نستطيع أن ندفع ضريبة الأخوَّةَ عندما نمشي بكل تواضع جنبا إلى جنب .... في سبيل الله .... يساعد كل منا الآخر ، ويواسيه، ويشد من أزره ، ونصلي لله ونشفع صلواتنا بالأعمال النافعة ، لكي يتحقق ما يطلبه الله منا ، عندما نتعاون جميعا في تبليغ رسالة الله وتحقيق مشيئته ".

هذا ، ......

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة سبأ : من الآية ٢٨)

هكذا كان يتحدث كما أوحى الله إليه نَبِيُّنَا الكريم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّمْ ، عليه رحمة الله وبركاته إلى أبد الآبدين ....

آميـــن .

المحتويات